



لماذا الحديث؟

مدخل إلى السنة وعلومها وكتبها وصلتها بالدين والحياة

إعداد منصة لماذا الحديث؟

فهم السنة، تعلّمها، والعمل بها

نسخة القراءة الأولى | سبتمبر 2026

whyhadith.org/book

عن هذه النسخة

هذا كتاب عن الحديث الشريف: معناه ومنزلته، وصلته بالقرآن، وكيف وصل إلينا، وما نشأ لخدمته من علوم وكتب. يجمع الشروح المنشورة في منصة «لماذا الحديث؟» في تسلسل واحد، يبدأ بالتعريف ويصل إلى المصنفات والأئمة والعبادة والحياة والأسئلة والتعلم. لكل فصل متن يمكن قراءته مستقلاً، ومراجع تبيين أصل المعرفة ووجه صلتها بالشرح.

تجمع هذه النسخة الشروح التي أعدتها المنصة، وتحفظ نسبة النصوص والأحكام إلى مصادرهما. إنها نسخة للقراءة والمراجعة، ولم تسجل لها بعد مراجعة علمية بشرية نهائية أو اعتماد كطبعة للبيع.

تجد النص نفسه في الموقع موزعاً على فصول، مع عرض المراجع داخل صفحة القراءة. تذكر الإحالات الكتاب والمؤلف والموضع، وتربط بأصولها المتاحة.

إعداد: منصة لماذا الحديث؟ العنوان الإلكتروني: whyhadith.org اللغة: العربية.
مقاس الصفحات: A5.

الكتاب على الموقع

فهرس الكتاب

الحديث والرسالة

1. لماذا الحديث؟ وما الحديث والسنة؟ 5
2. القرآن والرسول والوحي والإيمان 15
3. مكانة السنة: لماذا نتبع الرسول؟ 22
4. كيف تبين السنة القرآن؟ 30
5. علوم القرآن وصلاتها بعلوم الحديث 39

حفظ الحديث وعلومه

6. كيف وصل الحديث؟ من التلقي إلى التدوين 58
7. الإسناد والمتن: الطريق والنص وجهة النسبة 68
8. الصحيح والحسن والضعيف والمتواتر والأحاد 81
9. كيف نقد العلماء الرواة والروايات؟ 91
10. نقرأ حديثًا كاملًا: من المصدر إلى المعنى 102

كتب الحديث وأئمة

11. خريطة كتب الحديث وكتب علومه 108
12. البخاري ومسلم: المصنفان والصحيحان 116
13. السنن والجوامع: أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه 123

- 136 14. مالك وأحمد: الموطأ والمسنَد
- الحديث في الحياة والسؤال والتعلم
- 143 15. الحديث في العبادة والحقوق والعمل
- 157 16. قصص الماضي وأخبار المستقبل والآخرة
- 166 17. أسئلة واعتراضات: الثبوت والفهم والنقد
- 179 18. الحديث للمبتدئ والأسرة: خمس قراءات أولى
- 191 19. بعد القراءة: طريق التعلم والرجوع إلى المصادر

لماذا الحديث؟ وما الحديث والسنة؟

يحفظ الحديث بيان الرسول ﷺ وهديه في العبادة والحياة. يبدأ هذا الكتاب من هذه الصلة، ثم يشرح ما الذي يشمل اسم الحديث وكيف يستعمل العلماء لفظ السنة.

لماذا نحتاج إلى الحديث الشريف؟

الرسالة كتّاب وبيان وقُدوة

أنزل الله القرآن هداية للناس، وأرسل محمدًا ﷺ يبلغه ويبينه ويعلم العمل به. تلقى الصحابة منه الآيات، وسمعوا تفسيره وتعليمه، وشاهدوا عبادته وأخلاقه. لذلك لم تكن معرفتهم بالدين قراءة كتاب معزول عن الرسول الذي نزل عليه، بل تلقياً للكتاب ولهديه معاً.

يحفظ الحديث هذه المعرفة بأشكال متعددة: كلاماً قاله النبي، أو فعلاً رآه صحابي، أو أمراً علمه النبي فأقره، أو وصفاً لهيئته وخلقه. وهو بهذا يعرفنا بالرسول ويعلمنا مما بلغه، لا بمجرد انطباعات متأخرة عن شخصيته.

والقرآن نفسه يوضح مهمة البيان. فحين تأتي السنة بتفصيل عبادة أو شرح معنى، فإنها تؤدي وظيفة جعلها الله لرسوله، وليست مناقساً لكتابه.

المراجع: 1

الصلاة: تعليم بالقول والقُدوة

أمر الله بالصلاة، وعاش الصحابة كيفيتها مع رسول الله ﷺ. يروي مالك بن الحويرث أن

شباباً أقاموا عنده يتعلمون، ثم عادوا إلى أهلهم يحملون ما سمعوا وما شاهدوا. بقوله «صلوا كما رأيتموني أصلي» صار فعله بياناً ينقلونه إلى غيرهم.

وفي القصة نفسها يصف مالك النبي بالرحمة والرفق، ويذكر إدراكه شوقهم إلى أهلهم. اجتمع في درس واحد بيان العبادة وحسن تعليم الناس ومراعاة حاجتهم. هذه صورة مما يمنحه الحديث للقارئ: معنى الدين في كلام وموقف وعمل.

لذلك تفيدنا قراءة الرواية كاملة وشرح ما يربط أجزاءها. لا نعرف منها صفة الصلاة فقط، بل نرى كيف يعلم الرسول أصحابه، وكيف يتحول المتعلم إلى معلم لأهله.

المراجع: 2، 3

الإيمان بالرسول يتصل باتباعه

الشهادة بأن محمداً رسول الله ليست معرفة باسمه فحسب؛ إنها تصديق برسالته وتلقي لما بلغه عن ربه. يقرن القرآن طاعته بطاعة الله، ويجعل الرجوع إليه أصلاً عند الاختلاف. ولهذا يحتل الحديث هذه المكانة: فهو طريق معرفة أقوال الرسول وبيانه وهديه.

هذه المنزلة لا تعني تصحيح كل خبر يحمل اسمه؛ بل تفسر لماذا اعتنى العلماء بثبوت الروايات. نحتاج أولاً إلى معرفة أن الخبر ثابت عنه، ثم إلى فهم ما يدل عليه. تعظيم السنة وفحص ما ينسب إليها عملان متكاملان.

المراجع: 4

معرفة تتجاوز زمن الصحابة

لم يشاهد أكثر المسلمين رسول الله ﷺ، لكنهم يتعلمون هديه من الأخبار التي نقلها أصحابه. فمن يقرأ اليوم حديث الصلاة أو الرفق أو الأمانة ينتفع بمعرفة انتقلت عبر أجيال، وتونت في كتب، وشرحت ألفاظها ومعانيها.

لهذا لا ينفصل التعريف بالحديث عن قصة حفظه. كيف تلقاه الرواة؟ كيف كتبوه وجمعه؟ وكيف ميزوا بين ما ثبت وما لم يثبت؟ تجيب علوم الحديث عن هذه الأسئلة، ليبقى الاتصال بالرسول معرفة موثقة، لا حكاية بلا طريق.

المراجع: 5

الحفظ والتحقق يخدمان هذه المعرفة

الاهتمام بالحديث لم يقتصر على جمع الأخبار. تلقى الصحابة بالسماع والمشاهدة، وكتب بعضهم ما سمع، ثم نقل الرواة إلى من بعدهم. ومع جمع الروايات نشأت دراسة لطرقها وألفاظها وأحوال ناقلاتها، حتى يتميز الصحيح من الخطأ.

يذكر أبو هريرة كتابة عبد الله بن عمرو في خبر أخرجه البخاري. فهذا شاهد مبكر على الكتابة، قبل زمن تصنيف الصحيحين. تاريخ جمع كتاب كبير لا يساوي تاريخ بدء وجود كل ما فيه من روايات؛ فقد سبقه تلقي ونقل وكتابة.

من هنا نفهم وظيفة الإسناد والكتب والشروح: الإسناد يكشف طريق الرواية، والكتاب يجمعها ويرتبها، والشرح يبين معناها. تعلم هذه العلوم يزيد فهمنا للسنة ويعيننا على صيانة نسبتها.

هذه هي الإجابة عن لماذا الحديث: لأن الرسالة تفهم مع بيان الرسول وقدوته، ولأن حفظ كلامه وهديه ومعرفة الصحيح منه يصل العلم بالعمل. وبعد هذا المدخل تأتي معرفة أنواع الحديث ومصطلحاته وتاريخ حفظه؛ أبواب مختلفة تشرح هذه المعرفة المتصلة.

المراجع: 6

ما الحديث والسنة؟

الحديث خبر عما نسب إلى النبي ﷺ

الحديث النبوي، في التعريف الشائع عند المحدثين، هو ما أُضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. ومعنى «أضيف» أنه نُسب إليه: فقد ينقل الراوي كلاماً سمعه منه، أو عملاً شاهده، أو موقفاً أقره، أو وصفاً لهيئته وأخلاقه. ويورد السخاوي هذه الأنواع في أول كتابه «فتح المغيث».

يجمع هذا التعريف صوراً مختلفة من المعرفة بشخص النبي ﷺ وهديه. فالراوي الذي يصف صلاته ينقل حديثاً، وإن لم تكن الرواية كلها كلاماً قاله النبي. والذي يصف رحمته ينقل جائباً من شمائله. ويساعد هذا الاتساع على فهم تنوع أبواب كتب الحديث؛ ففيها العبادة والمعاملة والأدب والسيرة وصفات النبي، وكل باب يكشف جائباً من حياته وتعليمه. وتتعلق كلمة «حديث» هنا بنوع الخبر المنقول. أما ثبوت نسبته فله بحث آخر؛ ولهذا نجد في علم الحديث أوصاف الصحيح والحسن والضعيف. التعريف يبين ما الذي تدرسه هذه العلوم، ثم يأتي النقد ليفحص الروايات الداخلة فيه.

المراجع: 7

القول والفعل: تعليم بالكلام والمشاهدة

من الحديث القولي قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات». رواه عمر بن الخطاب، وافتتح به البخاري صحيحه. هنا ينقل الصحابي عبارة نوية، ويتجه فهمها إلى معنى الكلمات والعلاقة التي تقيمها بين العمل وقصد صاحبه؛ فقد تتشابه صورتان من العمل ويختلف ما يقصده صاحبهما.

ومن التعليم بالفعل ما رواه مالك بن الحويرث: أقام مع جماعة من الشباب عند النبي ﷺ عشرين يوماً وليلة، ثم وجههم إلى العودة إلى أهلهم وتعليمهم، وقال: «وصلوا كما رأيتموني أصلي». شاهدوا الصلاة ثم حملوا خبرها وتعليمها إلى غيرهم. فالقول في هذا الحديث يربط التعلم بالمشاهدة، والروايات التي تصف الصلاة تنقل الفعل المشاهد.

قد يجتمع القول والفعل في رواية واحدة، كما اجتماعنا هنا. وتقسيم الحديث إلى أنواع يوضح جهة النقل، ولا يفرض أن تكون كل رواية محصورة في نوع واحد. فالمشهد التعليمي يجمع كلام المعلم، وعمله، وفهم من حضر عنده.

المراجع: 8، 9

التقرير: أن يعلم بالفعل ويقره

التقرير هو أن يعلم النبي ﷺ بقول أو فعل ويقره، كأن يقع أمامه فلا ينكره مع قدرته على البيان. والمثال الواضح حديث خالد بن الوليد في أكل الضب: قدم الطعام للنبي ﷺ، فلما علم أنه ضب تركه. فسأله خالد: أحرام هو؟ فأجابه بالنفي، وبيّن أنه لا يألفه في أرض قومه. ثم أكل خالد والنبي ﷺ ينظر.

تكتشف القصة الفرق بين ميل الإنسان الشخصي وبين بيان التحريم. فترك النبي لهذا الطعام صاحبه تفسير منه، ثم إقرار لأكل خالد. ومن هنا تأتي قيمة الرواية كاملة: لو اقتصر النقل على أنه لم يأكل، لذهبت تفاصيل تشرح سبب الترك. والإقرار في هذا المثال يستند إلى علم النبي بالفعل وحضوره، وإلى جوابه الصريح عن سؤال خالد.

المراجع: 10

الصفة: الهيئة والأخلاق

تشمل الصفة المنقولة ما يتعلق بالخلق، أي الهيئة الجسدية، وما يتعلق بالخلق، أي السلوك والطباع. وصف أنس النبي ﷺ بأنه متوسط القامة، كما في صحيح البخاري. وفي حديث

آخر وصف طريقته مع الناس بأنه لم يكن سبأ ولا فحاشاً ولا لعاناً. فالرواية الأولى تعرّف القارئ بهيئته، والثانية تعرّفه بأدبه.

وتفسر هذه الأمثلة وجود أبواب الشمانل والآداب إلى جانب أبواب الأحكام. فمعرفة النبي ﷺ تشمل صورته الإنسانية وكيفية معاشرته للناس. ووصف خلقه، كالقامة، يختلف في طبيعة دلالاته عن 'خلق يقتدى به'؛ إذ يفيد الأول التعرف إلى شخصه، بينما يكشف الثاني عن طريقة تعامله التي شهدها أصحابه.

المراجع: 11، 12

السنة: الهدى، وقد تعني المستحب في الفقه

تدل السنة في أصل استعمالها على الطريقة. وعندما نتحدث عن سنة النبي ﷺ بهذا المعنى، نقصد هديه الذي جاء به وعلمه. ويظهر ذلك في حديث الثلاثة الذين أراد أحدهم دوام قيام الليل، والثاني دوام الصيام، والثالث ترك الزواج؛ فبين النبي طريقته في العبادة والحياة، وسماها سنته. موضوع الحديث هو اتباع هذا الهدى وفهمه.

وفي كتب الحديث يكثر استعمال الحديث والسنة بمعنى متقارب، كما يذكر السخاوي. أما في كتب الفقه فقد ترد كلمة «سنة» لتسمية حكم فعل معين، بمعنى مستحب أو مندوب، في مقابل الواجب. ومن أمثلته تعبير «سنة الفجر» عن الركعتين قبل الفريضة. وقد شرح ابن باز هذا الفرق بين إطلاق السنة على الهدى كله وإطلاقها على النوافل.

يتضح المعنى من موضوع الكلام: عبارة «ورد في السنة» تشير إلى مصدر نبوي، وعبارة «هذا الفعل سنة» قد تصف مرتبته الفقهية. فالحديث أو السنة بوصفهما مصدرًا قد يبينان واجبًا أو مستحبًا أو غير ذلك، بينما «سنة» في العبارة الفقهية اسم لحكم مخصوص.

المراجع: 13، 14

من معرفة نوع الخبر إلى ثبوته ومعناه

بعد معرفة هذه الأنواع، تظهر ثلاثة أسئلة متصلة: ماذا نقل؟ وهل ثبت نقله؟ وماذا يدل عليه؟ فحديث خالد، مثلاً، يحتوي فعلاً وقولاً وإقراراً؛ ومصدره المذكور صحيح البخاري؛ ومعناه يتضح بربط ترك الطعام بجواب النبي وسلوك خالد. لكل سؤال مادته، وتجتمع الإجابات لتكوين فهم واضح.

ويشرح ابن الصلاح الصحيح من جهة اتصال الإسناد، وعدالة الرواة وضبطهم، والسلامة من الشذوذ والعلة. فالنقطة بالرواية تقوم على فحص طريقها ومادتها. ثم يكشف الشرح دلالة النص ولغته وسياقه. وبهذا تتكامل معرفة الحديث بوصفه خبراً منقولاً مع معرفة السنة بوصفها هدًى نتعرف إليه من الروايات الثابتة.

المراجع: 15

مراجع الفصل

1. القرآن الكريم — بيان الرسول ﷺ

سورة النحل، الآية 44؛ تفسير ابن كثير

جعل الله بيان ما أنزله من مهمة الرسول ﷺ؛ فمعرفة القرآن تشمل معرفة بيانه النبوي.

المرجع الأصلي

2. تعليم الصلاة بالقول والعمل

صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث 631، عن مالك بن الحويرث

ربط النبي ﷺ صلاة أصحابه بما شاهدوه من صلاته؛ وهذا مثال واضح لبيان المجمل بالتعليم العملي.

المرجع الأصلي

3. رحمة النبي ﷺ بالمتعلمين

صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث 631

يصف مالك خلق النبي في تعليمه للشباب، ثم يذكر معرفته باشتياقهم إلى أهلهم.

المرجع الأصلي

4. طاعة الرسول من طاعة الله

صحيح البخاري، كتاب الأحكام، حديث 7137

يؤكد الحديث أن طاعة النبي ﷺ متصلة بطاعة الله الذي أرسله.

المرجع الأصلي

5. القرآن الكريم — طاعة الرسول ﷺ

سورة النساء، الآية 59؛ تفسير ابن كثير، فقرة الرد إلى الله والرسول

الأمر بطاعة الرسول دليل على أن اتباعه من الدين، وليس اختياريًا منفصلًا عن طاعة الله.

المرجع الأصلي

6. كتابة الحديث في حياة الصحابة

صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث 113

يصف أبو هريرة كتابة عبد الله بن عمرو؛ وهو شاهد على الكتابة المبكرة للحديث.

المرجع الأصلي

7. السخاوي — فتح المغيـب بشرح ألفية الحديث

المقدمة، تعريف الحديث؛ الصفحتان 14 و15 بحسب الترقيم الظاهر في النسخة المعروضة.

يشمل التعريف القول والفعل والتقرير والصفة، وهو أصل التقسيم الذي توضحه الأمثلة التالية.

المرجع الأصلي

8. حديث النيات — صحيح البخاري

كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، حديث 1.

مثال لقول نبوي نقله الصحابي وسمى سماعه من الرسول ﷺ.

المرجع الأصلي

9. تعليم الصلاة بالمشاهدة — صحيح البخاري

كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، حديث 631.

يرتبط الأمر القولي بالفعل الذي شاهده المتعلمون، ثم بتعليم أهلهم.

المرجع الأصلي

10. أكل خالد الضب بحضرة النبي ﷺ — صحيح البخاري

كتاب الذبائح والصيد، باب الضب، حديث 5537.

يجتمع في الرواية جواب النبي عن التحريم وإقراره أكل خالد؛ ولذلك تشرح معنى السنة التقريرية.

المرجع الأصلي

11. وصف قامة النبي ﷺ — صحيح البخاري

كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، حديث 3547.

«ربعة» وصف لمتوسط القامة؛ وهذا مثال للصفة الخلقية.

المرجع الأصلي

12. وصف أدب النبي ﷺ — صحيح البخاري

كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، حديث 6031.

ينقل أنس سلوكاً عرفه من صحبته للنبي ﷺ، وهو مثال للصفة الخلقية.

المرجع الأصلي

13. الهدي النبوي في العبادة والحياة — صحيح البخاري

كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث 5063.

سَمَّى النبي ﷺ طريقته في العبادة والحياة «سنتي»، في سياق تصحيح فهم الثلاثة.

المرجع الأصلي

14. ابن باز — الفرق بين السنة بمعنى الهدي والسنة بمعنى النافلة

جواب: توضيح مقولة أن السنة يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها.

المقصود من الإحالة شرح المصطلح في الفقه، أما أمثلة الروايات في الدرس فمصادرها الحديثية مستقلة.

المرجع الأصلي

15. ابن الصلاح — معرفة الصحيح من الحديث

مقدمة ابن الصلاح، النوع الأول: معرفة الصحيح من الحديث، أول التعريف.

يربط ابن الصلاح وصف الصحيح باتصال الإسناد وصفات الناقلين وسلامة الرواية.

المرجع الأصلي

القرآن والرسول والوحي والإيمان

نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. تتضح منزلة الحديث في صلته بالقرآن والبيان النبوي والإيمان، ويقرأ هذا الفصل حديث جبريل ويميز الحديث القدسي عن غيره.

الحديث والقرآن والعقيدة

رسالة واحدة وبيان نبوي

يتعلم المسلم دينه من القرآن ومن السنة الثابتة عن الرسول ﷺ. القرآن يأمر بطاعة الرسول، ويجعل له وظيفة بيان ما نزل للناس؛ فتلتقي قراءة الكتاب بتعلم هدي النبي الذي بلغه. وكان الصحابة يسمعون الآيات ويشاهدون العمل بها، ويسألون عما أشكل عليهم، فيعرفون الرسالة من كلمات تتلى وتعليم يعيشون أثره في حياتهم.

في سورة النحل يذكر القرآن إنزال الذكر إلى النبي ليبين للناس ما نزل إليهم. يظهر هذا البيان في المثال القريب: يأمر القرآن بإقامة الصلاة، ويعلم الرسول أصحابه الصلاة بالفعل والقول. قال لمالك بن الحويرث وأصحابه: «صلوا كما رأيتموني أصلي». فالأمر القرآني والتطبيق النبوي يؤديان إلى عبادة واحدة، لا عبادتين مختلفتين.

اشترك القرآن والسنة التشريعية في الهداية من الله لا يجعل كل حديث قرآنًا، ولا يحول كل ما ينسب إلى النبي إلى خبر صحيح. هناك سؤال عن منزلة البيان النبوي، وسؤال آخر عن ثبوت رواية بعينها. وجمع السؤالين يفسر لماذا اعتنى العلماء بفهم السنة وبنقد رواياتها معًا؛ فحمايتها من الخطأ خدمة لمرجعيتها وليست إنكارًا لها.

حين تشرح السنة معنى آية

قد يعرف القارئ معاني الكلمات، ثم يبقى محتاجاً إلى معرفة المراد بها في موضع معين. ففي آية الأنعام التي تعد بالأمن والهداية من لم يخلط إيمانه بظلم، خشي الصحابة أن يشمل الشرط كل خطأ يقع منهم. لم يكن سؤالهم اعتراضاً على القرآن، بل رغبة في فهم خطاب يصف حالهم ومصيرهم.

يبين تفسير ابن كثير أن النبي ﷺ قسر الظلم هنا بالشرك، ووصل الآية بقول لقمان إن الشرك ظلم عظيم. هذا مثال على السنة التي تشرح القرآن بالقرآن: ينقل الصحابي السؤال والجواب، ويجمع البيان النبوي بين الموضعين. بذلك يتضح المقصود الذي لم يصل إليه السامعون بمجرد معرفتهم العامة بكلمة الظلم.

ولا يعني هذا الشرح أن الاعتداء على الناس لم يعد ظلماً؛ إنما يحدد المعنى المقصود في هذه الآية. تشبه المسألة كلمة لها استعمالات متعددة، يعين السياق أحدها دون إلغاء سائر استعمالاتها. لهذا لا تكفي قراءة لفظ منفرد لبناء اعتقاد كامل؛ فالسنة وسياق الآية وبقية النصوص تكشف كيف تجتمع المعاني في خطاب واحد.

المراجع: 4

حديث جبريل يجمع الإيمان والعبادة

العقيدة تتعلق بما يؤمن به الإنسان عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر. وليست في تعليم النبي مجموعة أسماء محفوظة بلا صلة بالحياة. يروي عمر بن الخطاب في صحيح مسلم مشهد رجل جاء يسأل الرسول عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم عرف الصحابة أنه جبريل جاء ليعلمهم دينهم.

في الجواب عن الإيمان ذكر النبي هذه الأصول، وفي الجواب عن الإسلام ذكر الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج، وشرح الإحسان بعبادة الله مع استحضار مراقبته. تتابع

الأسئلة يكشف الصلة بين ما يصدق القلب وما يعمل الإنسان وكيف يؤديه. فحديث واحد يصل الاعتقاد بالعبادات ويصدق الحضور فيها، ولا يحصر الدين في مظهر خارجي. ومن أمثلته الإيمان باليوم الآخر: يعرف الإنسان أن عمله محسوب وأن لحياته غاية. والإحسان يجعل هذا المعنى حاضرًا حين يكون وحده كما يكون حاضرًا أمام الناس. فقد يستطيع إخفاء تقصير عن أعينهم، لكنه يعلم أن الله يراه؛ فيدفعه هذا العلم إلى صدق يتجاوز طلب الثناء، وإلى رجاء الأجر على خير لم يشهده أحد.

المراجع: 5

ما الحديث القدسي؟

الحديث القدسي خبر ينقله النبي ﷺ عن ربه، وليس من القرآن. وقد يأتي بصيغة بذكر فيها الراوي أن الرسول يروي عن الله، أو بصيغة ينسب فيها القول إلى الله تعالى. مثال ذلك حديث أبي ذر في صحيح مسلم، الذي يبدأ بإخبار الله عباده أنه حرم الظلم وجعله بينهم محرماً. نسبة القول إلى الله هي سبب تسميته قدسياً.

يشرح ابن باز الفرق بينه وبين القرآن: القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبد بتلاوته والقراءة به في الصلاة، ولا يأخذ الحديث القدسي هذه الأحكام. فلو حفظ شخص حديث أبي ذر، لم يصبح نصه سورة من المصحف، ولم يجز أن يجعله بدل القراءة القرآنية المطلوبة في الصلاة. هذا الفرق يبقى قائماً مع تعظيم النصين والإيمان بما ثبت فيهما.

أما الحديث النبوي الذي لا يسند فيه النبي القول إلى ربه، فينسب إلى الرسول، مثل حديث النيات. وقد يكون تشريعاً وتعليماً من الله مع أنه لا يسمى قدسياً. ويتضح الفرق بمقارنة الصيغتين: في حديث النيات ينقل عمر قول الرسول، وفي الحديث القدسي ينقل أبو ذر خبراً يرويه الرسول عن الله. وتبقى صحة الطريق مسألة يبحثها المحدثون في كل نوع.

المراجع: 6، 7، 8

مثال قدسي يجمع معرفة الله ومسؤولية الإنسان

حديث أبي ذر ليس قائمة أوامر متفرقة. يبدأ بتحريم الظلم، ثم يذكر افتقار العباد إلى الهداية والطعام والكسوة والمغفرة، ويبين غنى الله عن طاعتهم ومعصيتهم. تجتمع هذه المعاني لتعليم الإنسان أنه محتاج إلى ربه، وأن القدرة التي يجدها في نفسه ليست استقلالاً عنه ولا مبرراً للتكبر على سائر الخلق.

يظهر أثر ذلك في الربط بين الاستهداء وترك الظلم. فمن يسأل ربه الهداية يتعلم أن يهتدي في معاملته للضعيف، ومن يرجو المغفرة يتعلم الاعتراف بالتقصير. وتكرار نداء العباد في الحديث يقرب هذه المعاني إلى السامع: حاجته إلى ربه حاضرة في طعامه ولباسه كما هي حاضرة في إيمانه وتوبته، فتنظم جوانب حياته في صلة واحدة.

ويختتم الحديث بذكر إحصاء الأعمال والجزاء عليها، فيعود من معرفة الله إلى عمل العبد. فصلاح الإنسان لا يزيد في ملك الله، وفساده لا ينقص منه؛ لكنه يجد أثر عمله في مصيره. بذلك يلتقي هذا الحديث القدسي مع تعليم الإيمان باليوم الآخر في حديث جبريل: الاعتقاد بوجه العمل، والعمل يكتسب معناه داخل الصلة بالله والرجوع إليه.

المراجع: 5، 7

التوثيق يحفظ المعنى المقدس

قد تحمل رسالة متداولة عنوان «حديث قدسي» مع عبارة مؤثرة، لكن العنوان لا يكفي لإثبات النسبة. وصف الحديث بأنه قدسي يختلف عن وصفه بأنه صحيح أو ضعيف؛ فالأول متعلق بمن نسب إليه القول، والثاني متعلق بثبوت النقل. ولذلك لا تتجاوز الرواية البحث في سندها ونصها لمجرد أنها تتحدث عن الله.

في مثال أبي ذر نستطيع تسمية الصحابي والمصدر والموضع: صحيح مسلم، الحديث أما جملة مجهولة ألحقت به فلا تكتسب صحته بمجرد مجاورتها له. يشرح ابن 2577a

حجر أن قبول الأخبار يحتاج شروطًا، وأن الخطأ قد يقع في ألفاظها كما يقع في طرقها. صيانة اللفظ هنا جزء من احترام المعنى الذي يراد تعليمه.

تستقيم الصورة إذن بثلاث علاقات متصلة: القرآن أصل يتلى، والسنة بيان ثابت يعلم، والعقيدة فهم وإيمان يظهر أثرهما في الحياة. والحديث القدسي واحد من أنواع الأخبار النبوية، له نسبته الخاصة دون أن يختلط بالمصحف. ويفصل الفصل الخامس عشر صلة الحديث بالفقه والعبادات: كيف يصير فهم النص عملاً، مع بقاء الفرق بين كلام الرسول واجتهاد شارحه.

المراجع: 9، 7

مراجع الفصل

1. وظيفة البيان النبوي

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة النحل، الآية 44

يبين موضع الرسول من تعليم القرآن وشرح ما نزل، وهو أصل العلاقة التي يمثل لها الكتيب بتعليم الصلاة.

المرجع الأصلي

2. طاعة الرسول والرجوع إليه

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة النساء، الآية 59

يشرح ابن كثير الرجوع إلى الرسول بالرجوع إلى سنته؛ فتتضح للقارئ مرجعية البيان النبوي في تعلم الدين وفهمه.

المرجع الأصلي

3. تعليم الصلاة بالمشاهدة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الأذان، الحديث 631

يروى مالك بن الحويرث أمر النبي بتعليم الأهل والصلاة كما رآه يصلي؛ المثال يربط الأمر القرآني بالتعليم النبوي المحسوس.

المرجع الأصلي

4. بيان الظلم بالشرك في آية الأمن

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة الأنعام، الآية 82؛ الروايات عن ابن مسعود

يحفظ سؤال الصحابة والبيان النبوي، فيرى القارئ كيف تعين السنة المراد بكلمة لها استعمالات متعددة.

المرجع الأصلي

5. حديث جبريل في تعليم الدين

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الحديث 8a، رواية عمر بن الخطاب

يجمع الإسلام والإيمان والإحسان في مشهد تعليمي واحد؛ ترتيب الأسئلة والأجوبة يكشف صلة الاعتقاد بالعبادة ومراقبة الله.

المرجع الأصلي

6. الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي

عبد العزيز بن باز — نور على الدرب، جواب الفرق بين الأنواع الثلاثة، المادة 8850

يعرف القدسي ويميز خصائص القرآن عنه، ويمثل بحديث أبي ذر وحديث النيات؛ فتغدو الأنواع واضحة من صيغ روايتها واستعمالها.

المرجع الأصلي

7. حديث أبي ذر القدسي في تحريم الظلم وافتقار العباد

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، الحديث 2577a

ينسب أبو ذر الخبر إلى النبي فيما رواه عن الله. تجمع فقراته تحريم الظلم وافتقار العباد والجزاء، فتصل معرفة الله بمسؤولية العمل.

المرجع الأصلي

8. مثال للحديث النبوي غير القدسي

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، الحديث 1

ينقل عمر قول النبي في النيات؛ بمقارنة صيغة الرواية بحديث أبي ذر يتضح فرق تسمية النبوي والقدسي.

المرجع الأصلي

9. شروط قبول الأخبار وتمييز أخطاء النقل

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — نزهة النظر، تعريف الصحيح لذاته، ثم مبحث القلب في المتن
يشرح شروط القبول ووقوع الخطأ في اللفظ؛ ومنه يفهم القارئ كيف يخدم توثيق الرواية حفظ المعنى الذي يتعلمه.

المرجع الأصلي

مكانة السنة: لماذا نتبع الرسول؟

يربط القرآن الإيمان بالرسول باتباعه. يشرح هذا الفصل معنى حجية السنة، ويفرق بين أصل الاتباع وثبوت كل رواية منسوبة إليه.

حجية السنة

ماذا تعني حجية السنة؟

الحجة هي الدليل الذي يعتمد عليه في معرفة الدين. وحجية السنة تعني أن ما ثبت عن رسول الله ﷺ من التشريع والبيان مصدر نعرف به ما أمر الله به وما نهى عنه، وكيف نعبد ونحسن التعامل مع خلقه. ليست السنة إضافة للزينة حول القرآن؛ إنها هدي الرسول الذي أمرنا القرآن باتباعه.

يبدأ هذا المعنى من الشهادة بأن محمدًا رسول الله: نصدقّه فيما بُلِّغ، ونتبع ما جاء به عن ربه. ومن ثم لا تكون العلاقة بالنبي إعجابًا بأخلاق شخصية تاريخية فحسب؛ بل إيمانًا برسالته وتلقيًا لهدايته.

ولفظ السنة هنا غير استعماله في بعض كتب الفقه بمعنى المستحب. فعندما يقال إن صلاة معينة سنة، فالمقصود حكم ذلك الفعل. وعندما يقال إن السنة حجة، فالمقصود مرجعيتها في الدين، وتشمل ما يدل على واجب أو مستحب أو مباح أو محرم بحسب الدليل.

المراجع: 1

القرآن يأمر باتتباع الرسول

لم يقتصر القرآن على الأمر بتلقي ألفاظه؛ بل أمر بطاعة الرسول، وجعل الرجوع إليه سبيلًا لفصل التنازع، وبين أن من مهمته شرح ما أنزل للناس. هذه المعاني متكاملة: الرسالة بلاغ للنص، وتعليم لمعناه، وبيان للعمل به.

لذلك لا يستقيم أن نحتج بالقرآن لإبعاد السنة كلها؛ فالكتاب الذي نحتج به هو الذي يأمر باتتباع الرسول. ولا يعني ذلك مساواة الحديث بالقرآن في جميع الخصائص: القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته، وله خصائصه، والسنة الثابتة تبيينه وتدل على هديه.

تظهر الدلالة حين نجمع الأمر بالطاعة مع مهمة البيان؛ فلا يبقى الرسول مجرد ناقل كتاب يسلم الناس نصه ثم تنتهي صلتهم بتعليمه.

المراجع: 2، 3

كيف يظهر ذلك في عبادة واحدة؟

الصلاة مثال قريب. يأمر القرآن بإقامتها، فيتعلم الصحابة من الرسول ﷺ أفعالها وكيفيتها، ثم يعلمون من بعدهم. جاء مالك بن الحويرث مع شباب من قومه، فأقاموا عند النبي وتعلموا منه، ثم رجعوا يحملون تعليمًا شاهدهوه وسمعوه.

قول النبي لهم أن يصلوا كما رأوه يصلي يجعل فعله بيانًا مقصودًا للأمة. لم يترك لكل قارئ أن ينشئ هيئة الصلاة من عنده؛ ولم تكن رواية هذا التعليم زائدة على فهم الأمر القرآني، بل طريقًا إلى امتثاله.

ومن هنا تنشأ الحاجة إلى كتب الحديث: تحفظ أقواله وأفعاله، وتجمع طرق نقلها، ثم تتناول الشروح معانيها وما يجتمع معها من أدلة.

المراجع: 4

اتباعه بعد وفاته ﷺ

انتهى الوحي بوفاة رسول الله ﷺ، ولم تنته الرسالة التي بُلغها. اتباعه لمن جاء بعد الصحابة يكون باتباع سنته الثابتة، لا باختراع خبر جديد عنه. ونقل الصحابة والتابعين ومن بعدهم هو الذي يصل المتعلم بذلك البيان.

يفسر ابن كثير الرد إلى الله والرسول في آية النساء بالرجوع إلى الكتاب والسنة. فالرجوع ليس بحثًا عن رسول جديد أو تشريع جديد، بل تعلم لما جاء به الرسول الخاتم.

وتختلف وسائل الوصول باختلاف الأزمنة: سمع الصحابي مباشرة، وتلقى من بعده عن الرواة، ويقرأ المتعلم اليوم نصًا جمعه مصنف وشرّحًا كتبه عالم. تتعدد الوسائط، ويظل السؤال عن أمانة النقل وفهم المنقول أساسيًا.

المراجع: 2

حجية السنة لا تصح كل رواية

قولنا إن السنة حجة لا يعني أن كل عبارة منسوبة إلى النبي صحيحة. هناك فرق بين أصل وجوب اتباعه وبين التحقق من أنه قال عبارة بعينها. لأجل هذا الفرق نشأت عناية العلماء بالإسناد والرواة والمقارنة بين الألفاظ والطرق.

ثم إن ثبوت الحديث لا يغني عن فهمه. فقد يكون فيه لفظ يحتاج شرّحًا، أو يكون بعض معناه قد بينته رواية أخرى. وإذا اختلف العلماء في صحة طريق أو في دلالة نص، فهذه دراسة لذلك الدليل، وليست بمجرد رُفْضا للسنة كلها.

يجتمع بذلك التعظيم والتحقق: نوفر ما ثبت عن الرسول، ونصون نسبته من الخطأ، ونتعلم معناه قبل أن نبني عليه استنتاجًا. وليس على القارئ المبتدئ أن يعيد تحقيق الكتب؛ ينتفع بما حرره أهل العلم ويعرف سبب الرجوع إليهم.

المراجع: 5

إذا كان القرآن كاملاً، فلماذا نحتاج إلى السنة؟

كمال الرسالة يشمل بيان الرسول

يقوم هذا الاعتراض على تصور أن الكتاب الكامل ينبغي أن يورد كل تفصيل بنفسه، وأن الرجوع إلى بيان من خارجه يدل على نقصه. لكن هذه المقدمة ليست لازمة: فالكتاب قد يبين الأصل ويعين الجهة المخولة بشرحه وتطبيقه. والقرآن لم يترك هذه الجهة مجهولة؛ بل أمر بطاعة رسول الله ﷺ والاحتكام إليه. لذلك يكون الأخذ بالسنة امتثالاً لما قرره القرآن، لا استدراكاً لنقص فيه.

قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، ثم قال في الآية نفسها: ﴿إِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. يشرح ابن كثير الرد إلى الله بالرد إلى كتابه، وإلى الرسول بالرجوع إلى سنته. فالآية لا تجعل قول أي إنسان حجة مطلقة؛ وإنما تخص الرسول بهذه المنزلة لأنه المبلغ عن الله.

المراجع: 6

الرسول يبلغ ويبين

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. وبيان الرسول يجمع القول والعمل: يشرح معنى، ويعلم عبادة، ويقضي بين الناس، ويبين ما أمروا به. لا تفهم حياته التعليمية على أنها مجرد تسليم نص مكتوب ثم ترك الأمة دون تعليم. وقد حفظ الصحابة هذا البيان كما تلقوا عنه تلاوة القرآن، مع بقاء الفرق بين القرآن والسنة في اللفظ والخصائص وطريق الإثبات.

تظهر الحاجة إلى هذا البيان في الصلاة. فالمسلم يعرف من القرآن وجوب إقامتها، ثم يتعلم من النبي ﷺ هيئتها وأوقاتها وجملتها أحكامها. وفي حديث مالك بن الحويرث أمرهم ﷺ أن

يصلوا كما رأوه يصلي، وأن يعلموا أهلهم. هنا ليست السنة منافساً للأمر القرآني، بل صورته المعلّمة التي عرف المسلمون بها كيفية الامتثال.

المراجع: 7، 8

هل طاعته خاصة بمن عاش معه؟

كان الصحابي يسأل الرسول ﷺ ويسمع الجواب مباشرة، أما الأجيال اللاحقة فتعرف تعليمه بالنقل الموثق. موت المعلّم لا يحوّل تعليمه إلى غير ملزم إذا كانت رسالته باقية. والقرآن الذي يأمر باتباع الرسول يخاطب المؤمنين ولا يقصر الإيمان برسالته على جيل الصحابة. لهذا جمع العلماء بين بقاء الاتباع وبين البحث الدقيق فيما ثبت من أخبار الرسول.

هذه هي الحجة التي يشرحها ابن باز عند مناقشة الاكتفاء بالقرآن: القرآن يوجب اتباع الرسول، والسنة الصحيحة تنقل بيانه. فلا يكفي أن يسمى قول ما «قرآنيًا» ليكون موافقًا لجميع دلالات القرآن؛ العبرة بأن يبقى الأمر بطاعة الرسول والرجوع إليه معمولًا به، لا أن تفرغ هذه الأوامر من أثرها.

المراجع: 9، 6

حجية السنة لا تعني تصديق كل رواية

يبقى بعد إثبات الحجية سؤال آخر: هل هذا الحديث بعينه ثابت؟ والجواب عنه لعلوم الرواية والنقد، لا لمجرد وجود العبارة في كتاب أو انتشارها. لذلك يستطيع الباحث أن يثبت وجوب اتباع النبي ﷺ، وأن يناقش في الوقت نفسه صحة نسبة رواية معينة إليه. لا تناقض بين الأمرين؛ بل تنقية السنة مما لم يثبت من صميم خدمتها.

فالنتيجة ليست أن القرآن ناقص أو أن كل ما يروى سنة واجبة القبول. النتيجة أن الله أنزل كتابه وأرسل رسوله مبينًا له، وأن اتباع الرسالة يجمع الأصل وبيانه الصحيح. وما يحتاجه

القارئ بعد ذلك هو معرفة هذا البيان بأدلته وشرحه، وهو ما نشأت لخدمته علوم الحديث والفقه وأصوله.

المراجع: 9، 7

مراجع الفصل

1. طاعة الرسول من طاعة الله

صحيح البخاري، كتاب الأحكام، حديث 7137

يؤكد الحديث أن طاعة النبي ﷺ متصلة بطاعة الله الذي أرسله.

المرجع الأصلي

2. القرآن الكريم — طاعة الرسول ﷺ

سورة النساء، الآية 59؛ تفسير ابن كثير، فقرة الرد إلى الله والرسول

الأمر بطاعة الرسول دليل على أن اتباعه من الدين، وليس اختياراً منفصلاً عن طاعة الله.

المرجع الأصلي

3. القرآن الكريم — بيان الرسول ﷺ

سورة النحل، الآية 44؛ تفسير ابن كثير

جعل الله بيان ما أنزله من مهمة الرسول ﷺ؛ فمعرفة القرآن تشمل معرفة بيانه النبوي.

المرجع الأصلي

4. تعليم الصلاة بالقول والعمل

صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث 631، عن مالك بن الحويرث

ربط النبي ﷺ صلاة أصحابه بما شاهدوه من صلاته؛ وهذا مثال واضح لبيان المجمل بالتعليم العملي.

المرجع الأصلي

5. ابن الصلاح — العلة في السند والمتن

مقدمة ابن الصلاح، النوع الثامن عشر، ص91

يبين ابن الصلاح أن دراسة العلة تشمل طريق الرواية ولفظها، لا أسماء الرواة وحدها.

المرجع الأصلي

6. طاعة الرسول والرد إليه

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة النساء، الآية 59

يشرح ابن كثير الأمر بطاعة الرسول والرجوع إلى سنته عند التنازع. وجه الاستدلال أن القرآن نفسه يجعل لبيان الرسول مرجعية، فلا يكون اتباع القرآن إلغاء لهذه المرجعية.

المرجع الأصلي

7. البيان النبوي للقرآن

القرآن الكريم — سورة النحل، الآية 44

أسندت الآية إلى الرسول ﷺ بيان ما نُزل للناس. يستدل بها على وظيفة البيان مع التبليغ، ولا يستدل بها وحدها على صحة كل نص يُنسب إليه.

المرجع الأصلي

8. تعليم الصلاة بالقول والفعل

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الأذان، الحديث 631

قال النبي ﷺ لمالك بن الحويرث وأصحابه: «صلوا كما رأيتموني أصلي». يجمع الحديث بين تعليم الصلاة بالمشاهدة وتبليغها للأهل، وهو مثال محسوس لبيان السنة للأمر القرآني بالصلاة.

المرجع الأصلي

9. السنة ومكانتها في الإسلام وفي أصول التشريع

عبد العزيز بن باز — مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، 9/176 وما بعدها؛ فقرة الاستدلال بالنساء 59 والنحل 44

يجمع الشيخ أدلة وجوب اتباع الرسول، ويبين تلازم الأخذ بالقرآن والسنة. هذا المقال يستفيد من استدلاله بالحجية، ولا ينقل أحكاماً على أشخاص يطرحون سؤالاً أو إشكالاً.

المرجع الأصلي

كيف تبين السنة القرآن؟

تشرح السنة معاني القرآن وكيفية العمل به. تتضح وظائف البيان والتأكيد والتخصيص والتقيد حين تتصل بأمثلتها ووجوه الاستدلال فيها.

وظائف السنة وعلاقتها بالقرآن

البيان: من الأمر إلى معرفة كيف نعمل به

البيان اسم واسع لإظهار المراد، ومن أبرز صورته تفصيل المجمع: يرد الأمر في القرآن، وتأتي السنة لتشرح كيفيته. فالقرآن يأمر بالصلاة، ويبين الرسول ﷺ للناس كيف يصلون بقوله وفعله. لا نضيف هنا عبادة أخرى إلى الصلاة؛ بل نتعلم الصلاة التي أمر الله بها.

في حديث مالك بن الحويرث يتصل التعليم بالمشاهدة: أقام هو وأصحابه عند النبي، ثم أمرهم عند رجوعهم أن يصلوا كما رأوه يصلي. يفهم القارئ من هذا أن الفعل النبوي نفسه قد يكون شرًا مقصودًا، وأن تعليم الدين جمع بين السماع والعمل.

ويمتد البيان إلى تفسير لفظ أو توضيح معنى، فلا ينحصر كله في وصف الحركات. وعند استعماله بالمعنى الواسع يدخل تحته التخصيص والتقيد الآتيان؛ أفردناهما لأن لكل منهما سؤالاً أدق.

المراجع: 1، 2

التأكيد: اتفاق الكتاب والسنة على الحكم

التأكيد أن تأتي السنة بحكم موافق لما قرره القرآن، فتجتمع دلالة النصين عليه. ومن أمثلته طاعة الرسول: يأمر بها القرآن، ويقرر الحديث أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله. ليس الاتفاق تكررًا عديم الفائدة؛ فهو يرسخ الحكم ويبين منزلته في تعليم النبي للأمم.

الفرق عن تفصيل المجلد أن المثال هنا يقرر أصل الحكم نفسه، بينما مثال الصلاة السابق يشرح كيفية امتثاله. وقد يجمع الحديث تأكيد أصل مع تفصيل جانب منه، لذلك لا يلزم أن تكون وظائفه صناديق لا تلتقي.

ويعرض ابن القيم في إعلام الموقعين موافقة السنة للكتاب أحد الوجوه الجامعة للعلاقة بينهما. فهذه المصطلحات تصف صلة أدلة متكاملة، وليست درجات يتفاضل بها قدر كلام الرسول.

المراجع: 3، 4، 5

التخصيص: أي أفراد العام يتناولهم الحكم؟

العام لفظ يشمل أفرادًا متعددين، والتخصيص بيان أن بعضهم لا يدخل في حكمه بدليل. تقول آية المواريث: «يوصيكم الله في أولادكم»، ثم يرد الحديث في اختلاف الدين في الإرث. القرابة موجودة، لكن السنة تبين صورة لا يجري عليها الحكم العام نفسه.

إذن السؤال هنا عن الأفراد: هل كل من تحقق فيه اسم الولد يدخل في الحكم دون اعتبار آخر؟ يبين الحديث أن الجواب ليس كذلك. ويبقى العام معمولًا به في بقية أفراد، فلا يكون تخصيصه إبطًا للآية.

هذا المثال مذكور عند ابن القيم في بحث تخصيص القرآن بالسنة، ونص الحديث في صحيح البخاري. والغرض هنا فهم العلاقة بين العام والخاص، لا حساب تركة؛ إذ يجمع باب الفرائض أسباب الإرث وشروطه وموانعه جميعًا.

المراجع: 5، 6، 7

التقييد: وصف أو مقدار يحدد المطلق

المطلق يذكر الحقيقة دون قيد في الجهة محل البحث، كذكر الوصية دون تعيين مقدارها. والتقييد أن يأتي دليل يبين وصفًا أو مقدارًا معتبرًا فيها. ففي آية المواريث وردت الوصية، ويبين النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص مقدار الثلث مع قوله إن الثلث كثير.

السؤال هنا ليس: أي الأولاد يدخل في حكم الإرث؟ بل: ما المقدار الذي يتناوله الإذن في هذه الوصية؟ بهذا يفترق مثال التقييد عن مثال التخصيص السابق. وتذكر مادة المطلق في الموسوعة الأصولية لوزارة الأوقاف هذا التطبيق بربط الآية بالحديث.

في الحديث أيضًا معنى تربوي: رعاية حال الورثة وعدم تركهم محتاجين. فلا ننظر إلى العدد منعزلًا عن كلام النبي في حقوقهم. ولأبواب الوصية تفاصيل، منها الوصية للوارث وإجازة الورثة؛ المقصود هنا بيان أثر قيد المقدار، لا استيفاء أحكام الباب.

المراجع: 8، 9، 10

أحكام جاءت بها السنة بنصها

جاءت السنة بأحكام لم يذكرها القرآن بخصوص ألفاظها، ومنها منع الجمع في الزواج بين المرأة وعمتها أو خالتها. تلزم هذه الأحكام لأن الله أمر بطاعة رسوله. ويعبر عنها بعض العلماء بالتشريع المستقل، أي استقلال ذكر الحكم المفصل في السنة، لا استقلال الرسول عن الله في أصل التشريع.

وهذا المثال نفسه يدرسه العلماء من جهة تخصيص عموم الإباحة في القرآن. لا تناقض بين الجهتين: قد ننظر إلى موضع ورود الحكم المفصل، وقد ننظر إلى صلته بعموم قرآني. لذلك عرض ابن القيم وجوه العلاقة في ثلاثة أقسام كبرى، بينما يفصل الدرس صور البيان في عناوين أكثر.

تتضح الصورة الآن: التأكيد يقرر الحكم، وبيان المجلمل يشرح ما يحتاج إلى تفصيل، والتخصيص يتعلق بأفراد العام، والتقيد بصفة أو مقدار، والسنة تأتي أيضًا بحكم خاص لم يذكر بنصه في القرآن. يجمعها كلها اتباع رسول الله وفهم هديه مع كتاب الله.

المراجع: 11، 5

هل يمكن أن يكون بيان السنة مخالفًا للقرآن؟

التناقض غير البيان

التناقض أن يثبت الشيء وينفى من الجهة نفسها والحال نفسها. أما البيان فيوضح ما يتناوله الخطاب وكيف يُعمل به. فالأمر بالصلاة وتعليم هيئتها لا يتنافيان، واللفظ العام مع دليل يبين أن بعض الصور غير داخلة فيه ليس كإثبات حكم ونفيه عن الصورة نفسها بلا وجه للجمع.

ينطلق الشافعي في الرسالة من حجية بيان الرسول ﷺ التي أمر بها القرآن، ثم يناقش أمثلة يتوهم فيها الاختلاف. هذا الاستدلال يخاطب من يقبل أصل الحجية أو يريد فهم طريقة العلماء فيه؛ أما من يرفض الحجية من أساسها فله سؤال سابق تجيب عنه مقالة الاكتفاء بالقرآن. التفريق بين السؤالين يمنع أن نفرض النتيجة في أثناء مناقشة دليلها.

المراجع: 12، 13

مثال واضح لمعنى اللفظ

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. فهم بعض الصحابة الظلم على معنى يشمل كل معصية، فشق عليهم ذلك. وتبين النبي ﷺ أن المراد هنا الشرك، مستدلًا بقول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. يعرض ابن كثير هذا البيان في تفسير الآية مع رواياته.

لم يُلغ الحديث كلمة الظلم من القرآن، ولم يحكم بأن ظلم العباد ليس ظلماً. إنما بين المراد بالكلمة في هذه الآية. تظهر هنا وظيفة السنة في وصل آية بآية وتفسير معنى أشكل على السامعين. والخلط ينشأ عندما تحمل الكلمة على كل معانيها الممكنة ثم تظن أن تحديد المراد مخالفة للنص.

المراجع: 14

مثال العام والخاص عند الشافعي

بعد ذكر المحرمات من النساء جاء في القرآن: ﴿وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾. وثبت في السنة النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها. يناقش الشافعي هذا المثال باعتبار السنة مبنية للعموم: فليس كل ما عدا المذكورات مباحاً في كل صورة من صور الجمع، بل ورد البيان باستثناء هذه الصورة.

ومعنى المثال ليس تحريم الزواج بكل امرأة لها عمة أو خالة؛ المنهي عنه الجمع بين القريبتين المذكورتين في عصمة رجل واحد. هذه الدقة مهمة حتى لا يتحول عنوان أصولي إلى فهم خاطئ للنص. والسؤال الأصولي هو كيف دل البيان النبوي على المراد من العموم، لا كيف نلغي القرآن بسبب حكم ورد في السنة.

المراجع: 15، 16، 12

ماذا إذا بقي الإشكال؟

لا يملك الكاتب أن يسمي كل تعارض تخصيصاً لمجرد التخلص منه؛ فالتخصيص له دلالة، والنص المحتج به لا بد أن يثبت. وقد يكون أصل المشكلة رواية غير محفوظة، أو ترجمة غير دقيقة، أو إغفال نص آخر. كما قد يختلف العلماء في وجه الجمع أو في دلالة حديث، فتحتاج المسألة عرض هذا الخلاف بدل محوه.

جوابنا إذن يقدم نموذجين محددين يمكن فهمهما: تفسير الظلم بالشرك في آية الأنعام، وبيان صورة مستثناة من عموم الإباحة في باب النكاح. وهما يثبتان أن التفاوت بين العبارة

العامّة والتفصيل لا يساوي تناقضاً. أما كل اعتراض آخر فله نصه وأدلته؛ لا نطلب من القارئ قبول جواب لم يُشرح، ولا نزعم أن هذين المثالين يغنيان عن دراسة بقية المسائل.

المراجع: 12، 14

مراجع الفصل

1. القرآن الكريم — بيان الرسول ﷺ

سورة النحل، الآية 44؛ تفسير ابن كثير

جعل الله بيان ما أنزله من مهمة الرسول ﷺ؛ فمعرفة القرآن تشمل معرفة بيانه النبوي.

المرجع الأصلي

2. تعليم الصلاة بالقول والعمل

صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث 631، عن مالك بن الحويرث

ربط النبي ﷺ صلاة أصحابه بما شاهده من صلاته؛ وهذا مثال واضح لبيان المجمل بالتعليم العملي.

المرجع الأصلي

3. القرآن الكريم — طاعة الرسول ﷺ

سورة النساء، الآية 59؛ تفسير ابن كثير، فقرة الرد إلى الله والرسول

الأمر بطاعة الرسول دليل على أن اتباعه من الدين، وليس اختياراً منفصلاً عن طاعة الله.

المرجع الأصلي

4. طاعة الرسول من طاعة الله

صحيح البخاري، كتاب الأحكام، حديث 7137

يؤكد الحديث أن طاعة النبي ﷺ متصلة بطاعة الله الذي أرسله.

المرجع الأصلي

5. إعلام الموقعين لابن القيم — وجوه السنة مع القرآن

الجزء الثالث؛ فقرة السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه، ثم أمثلة تخصيص القرآن بالسنة
يجمع ابن القيم وجوه العلاقة في الموافقة والبيان والحكم الذي سكنت عنه القرآن.

المرجع الأصلي

6. القرآن الكريم — آية المواريث

سورة النساء، الآية 11

لفظ الأولاد هو محل العموم في المثال، وحديث أسامة يبين الصورة المستثناة.

المرجع الأصلي

7. حديث اختلاف الدين في الإرث

صحيح البخاري، كتاب الفرائض، حديث 6764، عن أسامة بن زيد

يمثل الحديث تخصيص عموم القرابة في آيات المواريث؛ فالقرابة ليست السبب الوحيد الذي ينظر إليه
هذا الحكم.

المرجع الأصلي

8. الوصية في آية المواريث

سورة النساء، الآية 11

لم تعين هذه العبارة مقدار الوصية؛ يبين الحديث جهة التقيد بالمقدار.

المرجع الأصلي

9. حديث سعد بن أبي وقاص في الوصية

صحيح البخاري، كتاب الوصايا، حديث 2742

يبين الحديث مقدار الوصية في قصة سعد، ويربط ذلك بحق الورثة وحاجتهم.

المرجع الأصلي

10. المطلق — علي جمعة، منصة وزارة الأوقاف المصرية

مادة المطلق، فقرة الوصية وتقييدها بالثلث

تشرح المادة المطلق وتذكر الوصية مثالا على تقييده بدليل السنة.

المرجع الأصلي

11. النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها

صحيح البخاري، كتاب النكاح، حديث 5109، عن أبي هريرة

ورد هذا الحكم بنصه في السنة، ومنشأ حجيته أمر الله باتباع الرسول ﷺ.

المرجع الأصلي

12. السنة مع الكتاب ووجوه البيان

محمد بن إدريس الشافعي — الرسالة، باب العلل في الحديث؛ مناقشة النساء 23-24 والجمع بين المرأة وعمتها

يشرح الشافعي موافقة السنة للكتاب بالنص أو بالبيان، ويطبق ذلك على العموم والخصوص. المقال يلخص المثال ودلالته، ولا يجعل عنوان الباب بديلاً عن الشرح.

المرجع الأصلي

13. وظيفة البيان

القرآن الكريم — سورة النحل، الآية 44

الأمر النبوي بالبيان هو أساس بحث علاقة السنة بالكتاب، مع بقاء التحقق من الرواية الخاصة مسألة أخرى.

المرجع الأصلي

14. بيان معنى الظلم في آية الأمن

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة الأنعام، الآية 82، تفسيرها بالأحاديث عن ابن مسعود
يورد ابن كثير سؤال الصحابة والبيان النبوي الذي يصل الآية بقول لقمان عن الشرك. موضع الاستدلال
هو تحديد المراد، لا نفي بقية معاني الظلم في سائر النصوص.

المرجع الأصلي

15. عموم الإباحة بعد ذكر المحرمات

القرآن الكريم — سورة النساء، الآية 24

موضع عبارة «وأحل لكم ما وراء ذلكم» التي يناقش الشافعي صلتها بالبيان النبوي في الجمع بين
القرايات.

المرجع الأصلي

16. النهي عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب النكاح، حديث 5109

يتعلق النص بالجمع بين المرأتين المذكورتين، لا بتحريم كل واحدة منهما لذاتها. به يتضح المثال
الأصولي المشروح في المقال.

المرجع الأصلي

علوم القرآن وصلاتها بعلوم الحديث

تساعد معرفة حفظ القرآن وجمعه وقرآته وأسباب نزوله على فهم عناية العلماء بالنص وبيانه. وتظهر صلة هذه العلوم بنقل الحديث وتفسيره.

حفظ القرآن وعناية العلماء: الوعد وأسباب الصيانة

الوعد الذي تبدأ منه القصة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. يفسر ابن كثير الذكر هنا بالقرآن، والحفظ بصيانتته من التغيير والتبديل. فالآية تخبر عن إنزال الله كتابه وتكفله بحفظه؛ ولا يصح اختزال معناها في أن العلماء عرفوا أسماء علوم القرآن، أو أن الحفظ مرادف لتأليف الكتب وحده. الوعد إلهي، وأعمال البشر التي خدمت القرآن أسباب مستخرة، وليست مصدر ذلك الوعد.

وهذا التمييز يجمع الإيمان بالتاريخ: نؤمن بخير الله، ثم نتعلم كيف تلقى المسلمون القرآن وأدوه وجمعوا مكتوبه وخدموا فهمه. فلا نضع وعد الله في مواجهة جهد القارئ والكاتب والمعلم، بل نرى العناية العلمية عملاً جاداً داخل أسباب الصيانة. وتبقى لكل مرحلة مادتها وشواهدا التي ينبغي قراءتها بدقة.

المراجع: 1

التلقي والمراجعة قبل المصنفات

لم يبدأ حفظ القرآن بظهور كتب علوم القرآن المتأخرة. ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن القرآن كان يُعرض على النبي ﷺ كل عام مرة، وعُرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه. يضع البخاري هذه الرواية في باب عرض جبريل القرآن على النبي. إنها صورة مبكرة للتلقي والمراجعة، تُظهر أن القرآن مقروء مسموع، وليس أوراقاً يتولى كل قارئ تفسير طريقة أدائها من عنده.

والتلقي لا يساوي حسن الصوت فقط؛ فالمقصود أن يتعلم القارئ ما يقرأ وكيف يؤديه، ثم يراجعه ويصحح خطأه. وفي انتقال القرآن تجتمع عناية الصدور بعناية الكتابة. لذلك لا يكفي لفهم تاريخه أن نسأل عن أقدم ورقة وحدها، كما لا ينبغي أن نهمل الشواهد المكتوبة ونكتفي بعبارة عامة عن الحفظ.

المراجع: 2، 3

مثال عملي: تكليف زيد بالجمع

يروى زيد بن ثابت أن أبا بكر كلفه بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، إثر مشورة عمر وخشيته من استمرار القتل في القراء. لم يكن زيد يؤلف نصاً جديداً؛ كان كاتِباً للوحي، وانطلق يتتبع القرآن من المواد المكتوبة ومن صدور الرجال. تبرز في الرواية مراجعته للأمر وشعوره بثقل المسؤولية، ثم قيامه بالتتبع. وحفظت الصحف عند أبي بكر، ثم عمر، ثم حفصة رضي الله عنهم.

هذا المثال يجعل معنى العناية محسوساً: تكليف معلوم، وشخص معروف بكتابته للوحي، وتتبع للمادة، وحفظ للصحف بعد إنجاز العمل. ثم تذكر رواية عثمان استعارة تلك الصحف من حفصة لنسخ المصاحف وإعادتها إليها. فنحن أمام مرحلتين متصلتين في خدمة النص، لا إنشاء نصين قرآنيين مختلفين.

المراجع: 3، 4

علوم متعددة تخدم كتاباً واحداً

تتنوع الأسئلة فتتنوع العلوم الخادمة: يبحث علم القراءات في وجوه الأداء المنقولة، وعلم الرسم في هيئة كتابة كلمات المصحف، وتعين العربية والسياق وأسباب النزول على فهم الخطاب. وبحث التفسير في بيان معاني الآيات، مستفيداً من القرآن نفسه ومن السنة وما ثبت عن السلف. فليست هذه العلوم بدائل عن التلاوة، وإنما أدوات لضبطها أو لفهم ما نتلوها، ولكل أداة مجالها وحدودها.

ويقرر ابن تيمية في مقدمة التفسير أهمية تعلم المعاني، ثم يبين أن أصح طرق التفسير تفسير القرآن بالقرآن، والاستعانة بالسنة المبينة له. هنا تظهر صلة الحفظ بالفهم من غير مساواة بينهما: بقاء النص يتيح الرجوع إليه وتصحيح الفهم، وصحة الفهم تحتاج إلى دليل ونظر. ولا تصبح كل عبارة في كتاب تفسير جزءاً من القرآن، ولا يكون جميع اجتهاد المفسر معصوماً.

المراجع: 5، 6

من معرفة التاريخ إلى أمانة القراءة

تظهر فائدة هذا المدخل حين ينقل الطالب آية الحجر: يثبت لفظها ورقمها من المصحف، ثم يفصل بين الآية وبين شرح ابن كثير لها، وبينهما وبين استنتاجه التعليمي عن جهود العلماء. وإذا وجد خطأ في اقتباس منشور صححه بالرجوع إلى النص؛ فلا ينسب خطأ الناسخ أو فهم الشارح إلى القرآن. وهكذا تتحول المعرفة بالحفظ إلى ممارسة: نقل أمين، وثيق متقن، وفهم يستند إلى مصدر، وشكر لجهود خادمة لا تحل محل كلام الله.

المراجع: 1، 5

جمع القرآن ورسم المصحف والقراءات: فروق تصنع الفهم

كلمة الجمع لا تعني حدًا واحدًا

قد يقصد بجمع القرآن حفظه في الصدر، وقد يقصد جمع مكتوبه في صحف، وقد يراد نسخ المصاحف وجمع الناس عليها. لذلك نبدأ بالسؤال: أي جمع نتحدث عنه؟ يورد صحيح البخاري خبرين متجاورين عن أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما. وفيهما مادة واضحة لفهم الفرق: الأول مرتبط بالخوف من فقد القراء، والثاني باختلاف ظهر بين جماعات من المسلمين في القراءة. واتصال المرحلتين لا يلغي اختلاف الحاجة التي عالجتها كل منهما.

المراجع: 7، 8

أبو بكر: جمع الصحف بعد الإمامة

لما كثر القتل في وقعة الإمامة أشار عمر على أبي بكر بجمع القرآن، مخافة استمرار القتل في القراء. ثم كلف أبو بكر زيد بن ثابت، وذكر له أنه كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ. يصف زيد تتبعه للقرآن من مواد الكتابة ومن صدور الرجال. فالعمل تثبت وجمع لما تلقوه، لا اختيار مؤلف لألفاظ يراها مناسبة، ولا بداية معرفة المسلمين بالقرآن بعد وفاة نبيهم.

ويذكر الخبر أن الصحف بقيت عند أبي بكر حتى توفي، ثم عند عمر، ثم عند حفصة بنت عمر. لهذا التفصيل قيمة تتجاوز أسماء الأشخاص: فهو يوضح ما صار إليه المجموع، ويهيئ لفهم استعانة عثمان بهذه الصحف في المرحلة التالية. ولا نحتاج لملء القصة بتفاصيل غير ثابتة كي ندرك جدتها.

المراجع: 7

عثمان: المصاحف المرجعية ومعالجة الاختلاف

في رواية أنس أخبر حذيفة عثمان بما أفرعه من اختلاف أهل الشام والعراق في القراءة أثناء الغزو. فطلب عثمان صحف حفصة، وكلف زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بنسخها. وأوصى الثلاثة القرشيين إذا اختلفوا مع زيد أن يكتبوه بلسان قريش. ثم رد الصحف إلى حفصة وأرسل المصاحف إلى الأمصار.

وتذكر الرواية أنه أمر بإحراق ما سواها من الصحف والمصاحف. يوضع هذا الإجراء داخل غرضه المصرح به: معالجة التنازع وجمع الناس على مرجع، وليس إنشاء وحي جديد. ولا يلزم من توحيد المصاحف إلغاء كل تنوع صحيح في الأداء؛ فصلة الرسم بالقراءات أوسع من تصور نص لا يقبل إلا وجّها صوتياً واحداً في كل موضع.

المراجع: 8، 9

الرسم والضبط والقراءة

الرسم هو هيئة كتابة كلمات المصحف وحروفها، أما الضبط فهو العلامات التي تعين على أداء الكلمة، مثل الحركات وعلامة السكون. والقراءة المعتبرة وجه من وجوه أداء القرآن المنقول عن أئمة بأسانيدهم إلى النبي ﷺ، وليست تخميناً تولده صورة الحروف. فالكتابة والأداء متصلان، لكن اسم أحدهما لا يغني عن الآخر، ومجرد احتمال الرسم لوجه لغوي لا يحوله إلى قرآن.

ويذكر ابن الجزري في ضابط القراءة الصحيحة موافقة العربية، وموافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصحة السند، ثم يشرح اعتبار شهرة القراءة وتلقي أئمة هذا الشأن لها. المقصود هنا فهم اجتماع النقل واللغة والرسم، لا اختزال مسائل ثبوت القراءات المفصلة في فحص شخصي سريع، ولا تجويز تركيب قراءة لم يتلقها أحد.

المراجع: 9

الأحرف السبعة ليست أسماء القراء السبعة

في حديث عمر وهشام بن حكيم قرأ كل منهما سورة الفرقان على وجه تلقاه، فأقر النبي ﷺ قراءتهما وذكر أن القرآن أنزل على سبعة أحرف. فالاختلاف المقبول راجع إلى الإنزال والتلقي. لكن الأحرف السبعة ليست هي القراءات المنسوبة إلى القراء السبعة الذين اشتهر جمع قراءاتهم في مصنفات لاحقة؛ وقد نص ابن الجزري على رد هذا الخط.

وختلف العلماء في تحديد المراد بالأحرف السبعة تفصيلاً وفي علاقتها بما اشتملت عليه المصاحف العثمانية. لذا نثبت الخبر ونميز المصطلحين، ولا نحول قولاً واحداً في تفسير الأحرف إلى اتفاق عام. كما لا تعني السبعة أن لكل كلمة سبعة أوجه، ولا أن القارئ مخير في استبدال كلمات القرآن بما يقارب معناها.

المراجع: 10، 11

مثال الفاتحة: تنوع يزيد المعنى بيّناً

ذكر ابن كثير قراءتي ﴿مَلِكْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ و﴿مَلِكْ يَوْمَ الدِّينِ﴾، وصرح بصحتهما. تتصل الأولى بالملك والسلطان، والثانية بالملك، والمعنيان ثابتان لله ولا يتناقضان. فهذا تنوع قراءة منقول، وليس خطأ طباعة ولا ترجمتين بشريتين. ومن خلاله يدرك الطالب لماذا يتعلم الأداء من أهله، ثم يستعين بالتفسير ليفهم أثر الوجه المقروء في المعنى.

المراجع: 12

أسباب النزول والمكي والمدني: مفاتيح الفهم المنضبط

ما السؤال الذي يجيب عنه سبب النزول؟

سبب النزول واقعة أو سؤال نزلت آية أو آيات بشأنه. ومعرفة تساعد على فهم ما يعالجه الخطاب، لكنها لا تعني أن لكل آية قصة خاصة يجب العثور عليها قبل قراءتها. فالقرآن هداية وتعليم وأخبار وأحكام، وليس سجلاً لحوادث منفصلة فقط. وإذا ثبت السبب أضاء جانباً من المعنى، مع بقاء النظر في لفظ الآية وسياقها وما يبينها من القرآن والسنة.

ومن المهم الفصل بين معرفة السبب وحصر الحكم فيه. فقد تكون المناسبة حادثة معينة، ويكون اللفظ متناولاً لها ولما يشبهها. ويبين ابن تيمية أن قول السلف: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به أحياناً السبب الذي نزلت عقبه، وأحياناً دخول صورة معينة في معناها. فالصياغتان قد تتشابهان، لكن وظيفة الخبر لا تتحدد بكلمتي «نزلت في» وحدهما.

المراجع: 13

عائشة تصحح قراءة آية السعي

سأل عروة خالته عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: 158]، وفهم منها أنه لا حرج في ترك السعي بين الصفا والمروة. فصحت له ذلك: لو كان المعنى نفي الحرج عن الترك لكان التعبير «أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا». ثم بينت أن قوماً من الأنصار كانوا يخرجون من السعي لأن من كان منهم يُهَلِّ لمناة قبل الإسلام كان يخرج من الطواف بين الصفا والمروة، فسألوا النبي ﷺ، فنزلت الآية لرفع هذا الحرج.

اجتمع في جوابها أمران: التدقيق في العبارة، ومعرفة المناسبة التاريخية. فالآية ترفع الحرج المتهوم عن الفعل، ولا تقرر بمجرد هذا التعبير أن تركه مباح. ثم ذكرت عائشة أن رسول الله ﷺ سن الطواف بينهما وأنه لا يترك. هذه ثمرة عملية لأسباب النزول: تمنع استنتاجاً يبدو قريباً عند اقتطاع الجملة، وتعيد القارئ إلى البيان الذي عرفه شهود التنزيل.

المراجع: 14

ثبوت القصة جزء من فهمها

لا تكفي ملاءمة قصة لمعنى آية لإثبات أنها سبب نزولها. فقد يستحسن الراوي أو الواعظ قصة مؤثرة، لكن البحث العلمي يسأل: من نقلها؟ وعن؟ وهل تصح نسبتها؟ وهل تصرح بأن النزول وقع عقب الحدث، أم تذكر مثلاً يدخل في الآية؟ هنا تظهر فائدة علوم الحديث في خدمة التفسير: فحص النقل يسبق بناء نتيجة جازمة عليه.

وإذا لم يثبت سبب معين لا نخترع بديلاً لملء الفراغ، ولا نقول إن الآية بلا معنى حتى تصح قصة بشأنها. نرجع إلى عبارتها وسياقها وبيانها الثابت. كما أن تعدد الأخبار لا يعني دائماً التناقض؛ فقد تكون أمثلة متعددة للمعنى نفسه. أما تعيين سبب تاريخي واحد من روايات مختلفة فيحتاج إلى موازنة لا إلى اختيار القصة الأشهر.

المراجع: 13

المكي والمدني: الزمن قبل المكان

أشهر اصطلاحات العلماء أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، ولو كان نزوله خارج المدينة. وقد ذكر السيوطي هذا التعريف مع اصطلاحات أخرى، فينبغي تعيين المقصود قبل التصنيف. وتفيد هذه المعرفة في تصور مراحل الدعوة وفهم سياق الخطاب، كما تعين في البحث عن المتقدم والمتأخر، لكنها لا تكفي وحدها للحكم بأن نصاً نسخ نصاً آخر.

والمثال الواضح قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]. أخبر عمر في صحيح البخاري أنه يعرف يوم نزولها ومكانه: والنبي ﷺ قائم بعرفة يوم جمعة. وهي مدينة بالاصطلاح الزمني، مع أن نزولها لم يكن في مدينة النبي. فإذا ساوى الطالب بين «مدني» و«نزل داخل المدينة» أخطأ في فهم المصطلح، لا في تحديد الموقع الجغرافي.

المراجع: 15، 16

من المفاتيح إلى قراءة مترابطة

القراءة المنضبطة تجمع هذه الأدوات ولا تستبدل بعضها ببعض: نقرأ الآية وما حولها، ونبحث عما يوضحها في القرآن والسنة، ونستفيد من لغة العرب وتفسير الصحابة ومن بعدهم، ثم نزن ما يرد في أسباب النزول. وليست كل عبارتين مختلفتين في كتب التفسير متعارضتين؛ فقد يذكر أحدهما معنى عاماً ويضرب الآخر مثلاً عليه. والتدبر ينتفع بهذا العلم حين يبني التأمل والعمل على معنى صحيح، لا حين يحمل الآية ابتداء على فكرة اختارها القارئ.

المراجع: 13

القرآن والسنة: تكامل النقل والبيان وعلوم الفهم

البيان وظيفة ثابتة للرسول

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]. يبين ابن كثير أن الرسول ﷺ يفصل المجلد ويبين المشكل. فالسنة ليست مادة غريبة نلحقها بالقرآن؛ فالقرآن نفسه يقرر وظيفة البيان النبوي. ومن ثم تجمع الدراسة بين ثبوت ما ينسب إلى الرسول وفهم وجه دلالته على الآية، بدل الاكتفاء بوجود عبارة تفسيرية تحمل عنوان حديث.

وهذا التكامل لا يزيل الفروق بين المصدرين: القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته، والسنة الثابتة هدي رسوله وبيانه، وتخضع الأخبار المنسوبة إليه للتحقق من صحتها. لذلك لا يساوي العثور على رواية في كتاب تفسير ثبوتها عن النبي، كما لا يصح رفض البيان الثابت لمجرد أنه خارج ألفاظ الآية.

المراجع: 17، 18

مثال: ما المراد بالظلم في آية الأمن؟

لما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]، سأل الصحابة: أينا لا يظلم نفسه؟ فبين النبي ﷺ أن المراد هنا الشرك، وذكر قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ أَظْلَمَ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]. وقد أخرج البخاري هذا البيان بلفظه في الحديث 3360. فالسؤال نشأ من فهم عام للفظ الظلم، وجاء الجواب يعين المقصود في هذا الموضوع.

تلقتي هنا ثلاثة أعمال: رواية حديث ثابت، وتفسير نبوي للآية، وربط آية بآية. ولا يصح تحويل النتيجة إلى قاعدة أن كلمة الظلم لا تعني إلا الشرك في جميع القرآن؛ فالبيان متعلق بالسياق الذي ورد السؤال عنه. وهكذا لا ينافس الحديث تفسير القرآن بالقرآن، بل قد يدلنا النبي نفسه على موضع البيان في القرآن.

المراجع: 19

لماذا تحفظ كتب التفسير الأسانيد؟

حين يذكر المفسر أسماء ناقلي الخبر يتيح معرفة الطريق الذي وصل به القول، وتعيين قائله: أهو حديث مرفوع إلى النبي، أم تفسير صحابي، أم قول تابعي؟ ليست هذه النسب مرتبة واحدة. وبنقاش ابن تيمية في مقدمة التفسير الصحيح والضعيف من المنقول، كما يناقش الأخبار التي لا سبيل إلى الجزم بتفاصيلها. فالإسناد مادة للفحص، وليس زخرفة ولا ختم صحة بمجرد وجوده.

والمفسر يستفيد من نقد المحدثين، ثم يدرس المعنى باللغة والسياق وجمع الأدلة. وقد يختلف مفسران اختلاف تنوع، فيعبر أحدهما عن المعنى ويذكر الآخر مثلاً له. أما إذا تناقضا فعلاً فمجرد نقلهما لا يجعل القولين صحيحين. والعربية ضرورية، لكنها لا تبيح اختيار كل معنى يحتمله المعجم مع إهمال المتكلم والمخاطبين وسياق الكلام.

المراجع: 18

المحكم والمتشابه: الواضح يفسر المشتبه

تذكر آية آل عمران 7 آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. ويشرح ابن كثير المحكمات بأنها بينات الدلالة يرجع إليها، وأن المتشابه قد يشتبه معناه على بعض الناس. فالمنهج أن يرد القارئ ما أشكل عليه إلى البيان الواضح، لا أن يعزل لفظاً محتملاً ويبني عليه ما يصادم المحكم. وليس وصف الآية بالاشتباه عند قارئ حكماً بأن القرآن متناقض، ولا أن كل علم بمعناها مستحيل.

ويفيد مثال الظلم السابق في تدريب هذه المهارة: بدل بناء نتيجة شاقة على الفهم الأول، سأل الصحابة فجاء البيان. تعلم السؤال وجمع المواضع أوثق من تحويل الاشتباه إلى عقيدة أو حكم قبل فهم الأدلة.

المراجع: 20، 19

الناسخ والمنسوخ: تغير الحكم بدليل لا بالتخمين

النسخ في الاصطلاح الأصولي رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر، وهو تشريع في زمن الوحي، لا صلاحية يمنحها العالم لنفسه لإلغاء الأحكام. ومثاله التعليمي تحويل القبلة: يذكر البخاري صلاة النبي ﷺ نحو بيت المقدس بعد الهجرة، ثم توجهه إلى الكعبة. فالعمل الأول كان طاعة في وقته، ثم صار الواجب اتباع الأمر اللاحق؛ وليس التحويل اتهاماً للصلاة السابقة بالبطلان. وتذكر الرواية نفسها نزول ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143] في شأن من مات قبل التحويل.

ولا يسمى كل بيان نسخاً؛ فالتخصيص يبين ما لم يدخل في العموم، والتفسير يوضح المراد، بخلاف رفع الحكم السابق. وقد نقد السيوطي التوسع في عد الآيات منسوخة وميز التخصيص من النسخ. فالتكامل بين علوم القرآن والحديث والأصول يعلمنا تحديد السؤال أولاً: هل ثبت النقل؟ وما المعنى؟ وهل وجد دليل على تغير الحكم وزمنه؟ لكل سؤال أدواته، وتكتمل الصورة بجمعها.

مراجع الفصل

1. القرآن الكريم وتفسير ابن كثير: الحجر 9

تفسير إسماعيل بن عمر ابن كثير — سورة الحجر، الآية 9: تفسير الجملة: «وإننا له لحافظون».

تثبت الصفحة لفظ الآية، ويصرح ابن كثير بأن الذكر هو القرآن وأن الله يحفظه من التغيير والتبديل. هذا موضع تفسير الوعد نفسه؛ أما وصف أعمال العلماء بأنها أسباب للصيانة فشرح تعليمي للعلاقة، وليس بديلاً عن تفسير الآية. رقم الصفحة في واجهة KSU رقم صفحة المصحف، لا صفحة طبعة التفسير.

المرجع الأصلي

2. صحيح البخاري: عرض القرآن على النبي ﷺ

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ، الحديث 4998.

رواية أبي هريرة تثبت العرض مرة كل عام ومرتين في عام الوفاة. موضع الاستدلال هو المراجعة والتلقي في العهد النبوي؛ ولا تستنتج من هذه الرواية وحدها تفاصيل كل قراءة أو تاريخ كل مصحف.

المرجع الأصلي

3. صحيح البخاري: جمع القرآن في عهد أبي بكر

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، الحديث 4986؛ خبر زيد بن ثابت.

يبين الخبر باعث الجمع بعد اليمامة، ومشورة عمر، وتكليف زيد الذي كان يكتب الوحي، وتتبع المکتوب والمحفوظ. وتحدد خاتمته انتقال الصحف من أبي بكر إلى عمر ثم حفصة. استعمل المقال هذه الخطوات نفسها، دون إضافة شروط تفصيلية للجمع لم ينص عليها هذا الحديث.

المرجع الأصلي

4. صحيح البخاري: نسخ المصاحف في عهد عثمان

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، الحديث 4987؛ خير أنس بن مالك. يربط الخبر المصاحف العثمانية بالصحف الموجودة عند حفصة: استعارها عثمان لنسخ المصاحف ثم ردها. هذا شاهد على اتصال المرحلتين؛ وليس معناه أن هدف أبي بكر وهدف عثمان كانا متطابقين.

المرجع الأصلي

5. مقدمة في أصول التفسير: تعلم المعاني وطرق التفسير

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية — فصلاً أهمية فهم معاني القرآن، وتفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة؛ النسخة النصية المفتوحة بلا ترقيم صفحات مطبوع.

يربط المؤلف تعلم القرآن بفهم معانيه، ويجعل تفسير القرآن بالقرآن ثم بالسنة من أصول فهمه. ويقرر في المقدمة وجود الصحيح وغير الصحيح في المنقول التفسيري، فيبقى كلام المفسرين مجالاً للتحقق لا نُصاً قرآنياً. الإحالة هنا إلى الفصل المسمى لا إلى صفحة مَحْمَنة.

المرجع الأصلي

6. النشر في القراءات العشر: أركان القراءة الصحيحة

محمد بن محمد ابن الجزري — المقدمة، أركان القراءة الصحيحة؛ ج 1، ص 9-13 بحسب ترقيم النسخة المعروضة.

يفصل ابن الجزري بين موافقة العربية وموافقة الرسم وثبوت النقل، ويشرح أن موافقة صورة الكتابة وحدها لا تكفي لقبول قراءة. يفيد هذا الفصل في معرفة وظيفة كل علم، لا في منح المبتدئ طريقة لإنشاء قراءة باجتهاده.

المرجع الأصلي

7. صحيح البخاري: جمع أبي بكر

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، الحديث 4986.

المصدر المباشر لباعث الجمع بعد اليمامة، وتكليف زيد، وتتبعه المکتوب والمحفوظ، ومآل الصحف عند حفصة. ليس في الاستشهاد ادعاء أن القرآن كان مجهولاً قبل الجمع، ولا إضافة تفصيل لشروط الإثبات لم تذكره الرواية.

المرجع الأصلي

8. صحيح البخاري: نسخ عثمان المصاحف

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، الحديث 4987.

يذكر الخبر اختلاف القراءة الذي نقله حذيفة، وأسماء لجنة النسخ الأربعة، وتعليمات عثمان، واستعارة صفح حفصة وردها، وإرسال المصاحف وإحراق ما سواها. بهذا السياق يفهم العمل العثماني باعتباره معالجة للاختلاف، لا تكراراً مجرداً لعمل أبي بكر.

المرجع الأصلي

9. النشر في القراءات العشر: أركان القراءة الصحيحة

محمد بن محمد ابن الجزري — المقدمة؛ ج 1، ص 9-13 بحسب ترقيم النسخة المعروضة؛ خصوصاً شرح موافقة الرسم وصحة السند.

يفصل النص أركان النقل والرسم والعربية، ويضرب أمثلة لاحتمال الرسم أكثر من وجه، ويشترط في شرح صحة السند شهرة القراءة عند أئمة الفن وعدم عدها من الغلط أو الشذوذ. يناقش أيضاً الخلاف في اشتراط التواتر؛ ولذلك لم يحول المقال الضابط إلى دعوى أن كل سند فردي صحيح يكفي وحده لإثبات قرآن.

المرجع الأصلي

10. صحيح البخاري: عمر وهشام والأحرف السبعة

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، الحديث 4992.
أقر النبي ﷺ ما قرأ به عمر وهشام بعد سماع قراءتيهما، ونسبه إلى الإنزال. الدليل على تنوع مآذون به متلقى، لا على حرية تغيير الألفاظ. ويجب فصل هذا الخبر النبوي عن اصطلاح جمع قراءات سبعة من الأئمة لاحقاً.

المرجع الأصلي

11. النشر: القراءات السبع والأحرف السبعة

محمد بن محمد ابن الجزري — المقدمة، الكلام على انحصار القراءات والأحرف واشتمال المصاحف العثمانية عليها؛ ج 1، ص 36-41 بحسب ترقيم النسخة المعروضة، وخاصة ص 39.
يجمع ابن الجزري نصوفاً ترد مساواة القراءات السبع بالأحرف السبعة، وينقل في ص 39 كلام ابن تيمية في أن جمع السبعة اشتهر باختيار ابن مجاهد. كما يعرض اختلاف العلماء في علاقة المصاحف العثمانية بالأحرف، وهو سبب إبقاء المقال هذه الجزئية موصوفة بالخلاف لا بالإجماع.

المرجع الأصلي

12. تفسير ابن كثير: مَلِك ومالك يوم الدين

إسماعيل بن عمر ابن كثير — سورة الفاتحة، الآية 4؛ أول التفسير وبيان اشتقاق مَلِك ومالك.
يصرح ابن كثير بأن القراءتين صحيحتان متواترتان، ثم يشرح المَلِك والمَلِك. أخذ المقال هذا التقرير والبيان دون تبني الأخبار الغربية الأخرى التي يناقشها التفسير في الصفحة نفسها.

المرجع الأصلي

13. مقدمة في أصول التفسير: أسباب النزول واختلاف التفسير

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية — فصل اختلاف التنوع؛ الفقرات المبدوءة بـ«وقد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم» و«ومعرفة سبب النزول تعين على فهم الآية»؛ ثم فصل الاختلاف الذي مستنده النقل، وفصل طرق التفسير. النسخة بلا صفحات مطبوعة.

يفرق المؤلف صراحة بين الخبر عن سبب النزول وذكر ما يدخل في معنى الآية، ويشرح أن التفسير بالمثل لا يقصر عموم اللفظ على شخص. كما يميز الصحيح وغير الصحيح في النقل، ويحذر من حمل ألفاظ القرآن على معان مقررة مسبقاً دون مراعاة السياق. هذا أصل طريقة المقال، لا توثيق لكل قصة تتداولها كتب الأسباب.

المرجع الأصلي

14. صحيح البخاري: عائشة وعروة في آية الصفا والمروة

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله، الحديث 1643؛ البقرة 158 ضمن متن الخبر.

تشرح عائشة سبب تخرج فريق من الأنصار، وتصحح استنتاج عروة من عبارة نفي الجناح، وتستدل بالسنة على عدم ترك السعي. وفي تنمة الرواية خبر آخر عن تخرج فريق ثان؛ لذلك وصف المقال السبب الذي حكته عائشة دون الادعاء بأنه حصر جميع الملابسات في الرواية.

المرجع الأصلي

15. الإتقان في علوم القرآن: تعريف المكي والمدني

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي — النوع الأول في معرفة المكي والمدني، فقرة تعريف المكي والمدني؛ ج 1، ص 55-56 بحسب ترقيم النسخة المعروضة.

يسرد السيوطي ثلاثة اصطلاحات ويقدم أشهرها: ما قبل الهجرة وما بعدها، بصرف النظر عن مكان النزول بعد الهجرة. هذا التعريف هو المعتمد تعليمياً في المقال؛ ولم تنتقل قوائم السور والروايات اللاحقة في الصفحة بوصفها جميعاً ثابتة أو محل اتفاق.

المرجع الأصلي

16. صحيح البخاري: نزول آية إكمال الدين بعرفة

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، الحديث 45؛ خير عمر في المائدة 3.

يصرح عمر بأن النبي ﷺ كان قائماً بعرفة يوم الجمعة حين نزلت الآية. بهذا المثال يختبر الطالب الفرق بين التصنيف الزمني للسور والآيات وبين مكان النزول الجغرافي.

المرجع الأصلي

17. القرآن وتفسير ابن كثير: وظيفة البيان النبوي

تفسير إسماعيل بن عمر ابن كثير — سورة النحل، الآية 44؛ تفسير «لتبين للناس ما نزل إليهم». النص القرآني يثبت وظيفة البيان، ويشرح ابن كثير تفصيل المجل وتبيين المشكل. نقل المقال موضع الاستدلال من الآية ولم يسمه الآية كاملة؛ فبدأتها «بالبينات والزبر».

المرجع الأصلي

18. مقدمة في أصول التفسير: النقل والسياق وطرق البيان

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية — فصول اختلاف التنوع، والاختلاف الذي مستنده النقل، والاختلاف الذي يعلم بالاستدلال، وتفسير القرآن بالقرآن والسنة؛ النص المفتوح بلا صفحات مطبوعة. يبحث المؤلف تفاوت المنقول في الصحة، والتفسير بالمثل، وضرورة مراعاة السياق وعدم فرض معنى سابق على النص. واقتصر الاستشهاد على هذه الأصول؛ فوجود حديث ينقله المؤلف أو يحسن إسناده لا يغني عن تخريجه المستقل عند استعماله دليلاً.

المرجع الأصلي

19. صحيح البخاري: البيان النبوي للظلم في الأنعام 82

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلاً، الحديث 3360؛ آيتا الأنعام 82 ولقمان 13 ضمن المتن.

هذه الرواية تتضمن جواب النبي الصريح وبيان الظلم بالشرك والاستشهاد بقول لقمان. اعتمد المقال النص العربي؛ ففي الترجمة الإنجليزية في الصفحة إحالة إلى 6:83، والصواب 6:82 كما يثبت نص الآية. ولم يكتف المقال بروايته 32 أو 4629 المختصرتين اللتين يختلف عرضهما للجواب.

المرجع الأصلي

20. تفسير ابن كثير: المحكم والمتشابه

إسماعيل بن عمر ابن كثير — سورة آل عمران، الآية 7؛ أول التفسير، بيان رد المشتبه إلى المحكم. يفسر ابن كثير المحكم بالواضح الذي يرجع إليه، ويصف اشتباه الدلالة على بعض الناس، ويرشد إلى رد المشتبه إلى الواضح. لم يدخل المقال في خلاف الوقف والتأويل عند «إلا الله»، ولم يسم كل تفسير محتمل تفسيراً صحيحاً.

المرجع الأصلي

21. صحيح البخاري: تحويل القبلة وصلاة من مات قبل التحويل

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، الحديث 40؛ خبر البراء بن عازب. يذكر الخبر الصلاة نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، ثم التوجه إلى الكعبة، وسؤالهم عن مات قبل التحويل. جاء المثال لبيان تعاقب الحكمين وصحة العمل الأول في وقته، لا لحصر جميع مسائل نسخ القرآن والسنة في هذا المثال.

المرجع الأصلي

22. الإتيان في علوم القرآن: تمييز النسخ من التخصيص

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي — النوع السابع والأربعون في ناسخه ومنسوخه، أنواع النسخ؛ ج 1، ص 647-653 بحسب ترقيم النسخة، وخاصة ص 652.

يعرض السيوطي استعمالات النسخ ثم ينفذ الزيادة في عد المنسوخ، ويستبعد قسماً لا علاقة له بالنسخ وقسماً هو من المخصوص. يفيد هذا التحرير في عدم تسمية كل رفع لإشكال نسخاً. والاصطلاح الأصولي الموجز في المقال لا يلغي أن لفظ النسخ استعمل في بعض كلام المتقدمين بمعنى أوسع.

المرجع الأصلي

كيف وصل الحديث؟ من التلقي إلى التدوين

سبق الحفظ والكتابة تصنيف الكتب الجامعة. يتتبع هذا الفصل الشواهد الموجودة على النقل والجمع، ويشرح لماذا لا يكون تاريخ كتاب متأخر تاريخ بداية كل رواياته.

كيف وصل الحديث وحُفظ؟

البداية: صحبة وتعليم ثم تبليغ

كان الصحابة يتلقون عن النبي ﷺ بالسمع والمشاهدة والسؤال، ثم يعلم بعضهم بعضاً ويبلغون من غاب. ومن أمثلة ذلك إقامة مالك بن الحويرث وأصحابه عند النبي عشرين يوماً وليلة، وتوجيهه لهم إلى الرجوع إلى أهلهم وتعليمهم الصلاة. تكشف هذه القصة كيف انتقل التعليم من مجلس النبي إلى بيوت وأماكن أخرى.

التلقي هو أخذ الرواية من صاحبها بطريق معلوم، والتبليغ هو نقلها إلى غيره. وقد يكون الشيء المنقول عبارةً سمعت، أو وصف عمل شوهد. ومع انتقال الخبر إلى جيل تالٍ يصبح اسم من سمع أو شاهد جزءاً من معرفتنا به؛ فالطالب ينقل عن معلمه، والمعلم عن من قبله. ومن هذه الحاجة نفهم لماذا حفظت كتب الحديث أسماء الناقلين مع النصوص.

المراجع: 1

الكتابة موجودة في العهد النبوي

حفظ بعض الصحابة بالذاكرة، وضم بعضهم إليها الكتابة. ففي صحيح البخاري يذكر أبو هريرة أن عبد الله بن عمرو كان يكتب، ويقارن ذلك بطريقته هو في الحفظ. هذه شهادة

صحابي على ممارسة الكتابة، وتبين أن وسائل التلقي والحفظ لم تكن واحدة عند جميع الصحابة.

وتأتي رواية عبد الله بن عمرو نفسه في سنن أبي داود بمزيد من التفصيل: كان يكتب ما يسمعه يريد حفظه، ثم توقف حين اعترض عليه بعض الناس، فسأل النبي ﷺ فأذن له بالكتابة. وهذا الإذن متعلق بتثبيت ما يسمعه منه. والرواية رقم 3646، وقد صححها الألباني كما هو مبين في بيانات المصدر.

وفي خبر آخر رواه البخاري، طلب أبو شاه، وهو رجل من أهل اليمن، كتابة الخطبة التي سمعها عند فتح مكة؛ فقال النبي ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه». فالكتابة هنا تحفظ تعليمًا محدّدًا لينتفع به طالبه. وتثبت هذه الوقائع وجود كتابة للحديث في حياة النبي، فيما يبقى جمع الروايات في مصنفات واسعة عملاً آخر له نطاقه وتاريخه.

المراجع: 2، 3، 4

كيف فهم النهي عن الكتابة مع الإذن بها؟

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قول النبي ﷺ: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه». وفي الرواية نفسها إذن بالتحديث عنه. فالسؤال الذي بحثه الشراح هو وجه اجتماع النهي عن الكتابة مع الأخبار التي تثبت الإذن بها، وكيف يفهم كل نص مع بقية النصوص.

يعرض النووي في شرحه عدة أجوبة: منها أن النهي كان بسبب الخوف من اختلاط الحديث بالقرآن، ثم جاء الإذن حين زال الخوف؛ وهذا تفسير بالنسخ، أي تغيير الحكم بين مرحلتين. ومنها أن النهي متعلق بكتابة الحديث والقرآن في صحيفة واحدة، فيكون الفرق في كيفية الكتابة. ومنها حمل النهي على من يعتمد على الكتابة فيهمل حفظه، والإذن على من يحتاج إليها.

هذه وجوه ذكرها العلماء للجمع بين الروايات، ولا تتضمن الأحاديث المذكورة تعيين تاريخ لكل نهى وإذن. وتختلف هذه الوجوه في تفسيرها: بعضها يجعل للزمن أثراً، وبعضها يربط الحكم بحال الكتابة أو حال الكاتب. لذلك نثبت ما تدل عليه الشواهد، وهو وقوع الكتابة والإذن بها، ونعرض لتفسير النهي بأقواله المنسوبة دون اختزالها في تسلسل زمني مقطوع به.

المراجع: 5، 6

الإسناد يجعل طريق الخبر قابلاً للفحص

الإسناد سلسلة الأشخاص الذين نُقل الخبر عنهم، والمتن هو نص الخبر في آخر السلسلة. فإذا ذكر المصنف أنه سمع من شيخ، ثم سَمَّى الشيخ من نقل عنه، أمكن البحث في صلة هؤلاء الرواة بعضهم ببعض، وفي معرفتهم وضبطهم. هكذا يصبح للسؤال «ممن أخذت؟» جواب يمكن تتبعه.

ويورد مسلم في مقدمة صحيحه قول محمد بن سيرين عن اشتداد السؤال عن الإسناد بعد الفتنة، ومنه: «سَمَوُا لنا رجالكم». هذا كلام عالم من التابعين يصف عناية بمصادر الرواية. وتكمن دلالته هنا في إظهار الصلة بين قبول الخبر ومعرفة ناقله.

وتسمية الراوي بداية الفحص؛ فمعرفة الاسم تتيح دراسة زمنه وشيوخه ورواياته ومقارنتها. ويشرح ذلك لماذا احتاج المحدثون إلى أخبار الرجال إلى جانب نصوص الأحاديث: فالخبر وصل عن طريق إنسان، وفهم طريقة نقله جزء من تقويم الخبر.

المراجع: 7

من الكتابة إلى الجمع في مصنفات

الكتابة تثبت خبر أو أكثر في صحيفة أو كتاب. أما التدوين فيستعمل في الحديث عن جمع المادة وحفظها، والتصنيف يبرز فيه ترتيبها وفق خطة؛ كجمع أحاديث موضوع واحد في

أبوابه. وتستعمل الكتب التاريخية هذه الألفاظ أحياناً بمعانٍ متقاربة، ولذلك يفيد النظر إلى طبيعة العمل نفسه: ما الذي جُمع، وكيف رُتب؟

ومن شواهد العناية بالجمع ما أورده البخاري في صدر باب «كيف يقبض العلم»: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم يطلب كتابة حديث النبي ﷺ، وذكر خوفه من ذهاب العلم بموت العلماء. هذا خطاب أورده البخاري في ترجمة الباب، أي الكلام الذي يقدم به موضوعه، قبل الحديث المسند رقم 100.

يربط الخطاب الكتابة باستمرار التعليم مع رحيل حملته. وهو يبين اتساع مقصد الجمع بعد وجود الكتابة الفردية التي تشهد لها روايات الصحابة. ثم يظهر أثر التصنيف في الكتاب الذي بين أيدينا: فقد جمع البخاري أخبار العلم في كتاب، ورتب داخله أبواباً للتلقي والكتابة وغيرها، ليسهل وصل الروايات بموضوعاتها.

وتنتظم هذه الأعمال في تعاقب واضح: كان التلقي وكتابة بعض الأخبار في حياة النبي ﷺ، ثم استمر نقل الصحابة وتلامذتهم، وجاء طلب عمر بن عبد العزيز جمع الحديث في عهد خلافته، ثم توسعت المصنفات التي تجمع الروايات وتبويبها، ومنها صحيح البخاري وصحيح مسلم. هذه مراحل في وسائل الحفظ والجمع، لا بداية جديدة للحديث عند كل كتاب.

المراجع: 8

الحفظ يشمل التمييز بين الروايات

تبقى مع جمع الأخبار مهمة نقدها. فالكتابة قد تحفظ لقطاً على وجهه، وقد تحفظ خطأ وقع في النقل؛ ولذلك يبحث المحدثون في صحة الرواية نفسها. ويلخص تعريف ابن الصلاح للصحيح عناصر هذا الفحص: اتصال السند، وعدالة الرواة وضبطهم، والسلامة من الشذوذ والعلة.

يتعلق الاتصال بأخذ الناقل عن فوقه، والعدالة بصدقه واستقامته، والضبط بإتقانه ما ينقل. وتظهر أهمية جمع الطرق حين تقارن رواية الراوي بما رواه غيره، فتتكشف موافقة أو مخالفة تحتاج إلى تفسير. ولهذا قد يروي المصنف الخبر من أكثر من طريق، وتبحث كتب العلل في فروق تبدو صغيرة لكنها تؤثر في الحكم.

فالسماح يحمل الخبر من جيل إلى جيل، والكتابة تثبته، والتصنيف يجمعه ويرتبه، والنقد يختبر نقله. وهذه الأعمال المتعاونة تفسر كيف نقرأ اليوم روايات مسندة ذات مصادر ودرجات، وكيف أصبحت دراسة الحفظ أيضًا دراسة للوسائل التي تكشف الخطأ وتفصل بين الأخبار.

المراجع: 9

هل تأخر تدوين الحديث يعني أنه لم يُحفظ؟

ثلاثة أشياء لا تعني الشيء نفسه

تستعمل كلمة التدوين أحياناً لمعانٍ مختلفة: كتابة رجل ما سمعه في صحيفة، وجمع الروايات المتفرقة، وترتيبها في كتاب جامع ذي أبواب وشروط. فإذا قيل إن صحيح البخاري أُلّف في القرن الثالث، فذلك تاريخ مصنف بعينه، لا تاريخ أول حديث نُقل أو كُتب. والخلط بين هذه المعاني هو أصل الاستنتاج أن قرنين كاملين مرا دون نقل أو توثيق.

في صحيح البخاري يذكر أبو هريرة أن عبد الله بن عمرو كان يكتب، بينما لم يكن هو يكتب. ليس معنى هذا أن جميع الصحابة كانت لهم كتب، ولا أن البخاري يعرض علينا مخطوطاً أصلياً لتلك الصحيفة؛ وإنما هو خبر مسند عن كتابة مبكرة. وفي قصة أبي شاه طلب رجل أن تُكتب له خطبة سمعها، فأمر النبي ﷺ بالكتابة له. كلا الخبرين يناقض دعوى أن الرواية الإسلامية نفسها تخلو من أي شاهد على الكتابة في العصر النبوي.

المراجع: 10، 11

لماذا نهى عن الكتابة في حديث آخر؟

ورد في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»، وفي الحديث نفسه الإذن بالتحديث والتحذير من الكذب. فلا يصح تحويل النهي إلى منع مطلق من تبليغ السنة؛ لأن تنمة النص تجيز التحديث. لكن الجمع بين هذا النهي وبين أحاديث الإذن بالكتابة سؤال حقيقي بحثه العلماء، وليس نَصاً يجب إخفاؤه.

عرض النووي في شرح الحديث وجوهاً للجمع: أن النهي كان عند خشية اختلاط غير القرآن به ثم زالت الخشية، أو أنه يتعلق بكتابة القرآن وغيره في صحيفة واحدة، أو باختلاف أحوال من يحتاج إلى الكتابة ومن يُخشى اتكاله عليها. هذه أقوال تفسيرية لعلماء، وليست كلها وقائع تاريخية مستقلة ثبتت بحديث يحدد وقت كل نهى وإذن. والقدر الواضح من مجموع النصوص أن في الرواية نهياً في سياق، وإذناً ثابتاً في سياقات أخرى، فلا يستقيم حذف أحد الجانبين.

المراجع: 12، 13

من الصحف إلى المصنفات

أورد البخاري في باب «كيف يقبض العلم» طلب عمر بن عبد العزيز من أبي بكر بن حزم أن يجمع حديث رسول الله ﷺ خشية ذهاب العلم وموت العلماء. هذا أثر في عنوان الباب، وليس هو الحديث النبوي رقم 100 الذي يأتي بعده. ودلالته أن الجمع المنظم استهدف حفظ علم يتناقله أهله، لا إنشاء أقوال جديدة ونسبتها إلى الرسول.

ثم تطور التصنيف: يجمع المصنف أحاديث الأحكام على أبواب، أو يرتب الروايات بحسب الصحابة، أو يشترط درجة معينة للقبول. بهذا نفهم لماذا لا يدل اختلاف تواريخ الكتب على اختلاف تاريخ نشأة المادة كلها. فالكتاب المتأخر قد يجمع طرقاً ومصادر أقدم، وتصبح أسانيده جزءاً من مادة البحث في صلته بمن سبقه.

المراجع: 14

ما الذي يثبت الثقة برواية معينة؟

لا تكفي الكتابة وحدها لتصحيح الخبر؛ فقد يخطئ الكاتب كما قد يخطئ الحافظ. لذلك درس المحدثون السماع واللقاء، وضبط الراوي، وروايات زملائه، وما حفظه كتابه وما دخله من تغيير. الحفظ والكتابة وسيلتان متكاملتان حين تقترنان بالمقابلة والنقد، وليستا ضمناً آلياً لكل نص وصل إلينا.

وجواب اعتراض التأخر محدد: لا يصح اتخاذ تاريخ تصنيف كتاب متأخر دليلاً على انعدام النقل قبله. أما من يسأل تاريخياً عن صحة كل شاهد مبكر، فله أن يبحث أسانيده ومصادره وتعدد طرقه؛ لا نقدم له خبراً تراثياً على أنه فحص أثري لمخطوط معاصر. هذه التفرقة تحفظ قوة الجواب، لأنها تثبت ما تدل عليه الشواهد فعلاً ولا تحملها دعوى أوسع.

المراجع: 10، 13

مراجع الفصل

1. التعلم ثم تعليم الأهل — صحيح البخاري

كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، حديث 631.

تجمع القصة الإقامة للتعلم، والمشاهدة، والرجوع إلى الأهل لتعليمهم؛ وهي صورة عملية للتلقي والتبليغ.

المرجع الأصلي

2. شهادة أبي هريرة على كتابة عبد الله بن عمرو — صحيح البخاري

كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث 113.

شاهد مباشر على اجتماع الحفظ والكتابة عند بعض الصحابة.

المرجع الأصلي

3. إذن النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بالكتابة — سنن أبي داود

كتاب العلم، باب في كتابة العلم، حديث 3646.

يذكر الراوي قصده من الكتابة، ثم سؤاله النبي ﷺ وإذنه له.

المرجع الأصلي

4. كتابة الخطبة لأبي شاه — صحيح البخاري

كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، حديث 2434.

طلب رجل كتابة الكلام الذي سمعه، فأمر النبي ﷺ بكتابته له.

المرجع الأصلي

5. حديث أبي سعيد في النهي عن الكتابة — صحيح مسلم

كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، حديث 3004.

وجود الرواية إلى جانب أحاديث الإذن هو منشأ بحث الشراح في الجمع بينها.

المرجع الأصلي

6. النووي — وجوه الجمع بين أحاديث النهي والإذن

المنهاج شرح صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، شرح حديث 3004، الجزء 18.

يفرق عرض النووي بين تفسير يقوم على تقدم النهي، وتفسير يتعلق بالصحيفة، وتفسير يتعلق بحال الحافظ.

المرجع الأصلي

7. أثر ابن سيرين في السؤال عن الرجال — مقدمة صحيح مسلم

مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين؛ الرقم الظاهر في المورد: Introduction 27، والترقيم الداخلي: الرواية 26.

يشرح سؤال تسمية الناقلين سبب العناية بالإسناد وأحوال الرواة.

المرجع الأصلي

8. خطاب عمر بن عبد العزيز في جمع الحديث — صحيح البخاري

كتاب العلم، ترجمة باب كيف يقبض العلم، قبل الحديث 100.

«دروس العلم» ذهابه واندثاره؛ فالطلب متعلق بحفظ العلم واستمرار تعليمه.

المرجع الأصلي

9. ابن الصلاح — شروط الحديث الصحيح

مقدمة ابن الصلاح، النوع الأول: معرفة الصحيح من الحديث.

وجود النص مكتوباً مرحلة من حفظه؛ أما الحكم بصحته فمبني على الشروط التي يشرحها هذا التعريف.

المرجع الأصلي

10. كتابة عبد الله بن عمرو

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب العلم، حديث 113

يشهد أبو هريرة في الرواية أن عبد الله بن عمرو كان يكتب. يستفاد منها وجود كتابة فردية مبكرة، لا أن جميع الحديث 'جمع آنذاك في كتاب واحد.

المرجع الأصلي

11. الإذن بالكتابة لأبي شاه

الإمام البخاري — صحيح البخاري، حديث 2434، في خبر خطبة فتح مكة طلب أبو شاه كتابة الخطبة، فجاء الأمر النبوي بكتابتها له. هذه واقعة إذن محددة تقرأ مع خبر النهي، فلا يصح تعميم المنع مع إغفالها.

المرجع الأصلي

12. النهي عن كتابة غير القرآن

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث 3004 يشتمل النص على النهي عن الكتابة، والإذن بالتحديث، والتحذير من الكذب. عرض عناصره معاً يمنع فهمه على أنه إلغاء لتبليغ السنة.

المرجع الأصلي

13. شرح حديث النهي عن الكتابة

يحيى بن شرف النووي — شرح صحيح مسلم، الجزء 18، شرح الحديث 3004 يعرض النووي وجوه الجمع بين النهي والإذن. المقال يلخص هذه الوجوه وينسبها إليه، دون الجزم بتأريخ لم يصرح به النص.

المرجع الأصلي

14. طلب عمر بن عبد العزيز جمع الحديث

الإمام البخاري — كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم؛ التعليق السابق للحديث 100 الأثر عن عمر بن عبد العزيز يتعلق بجمع ما لدى العلماء خشية فقده. ليس حديثاً مرفوعاً، ولا يحمل رقم الحديث 100 الذي يليه.

المرجع الأصلي

الإسناد والمتن: الطريق والنص وجهة النسبة

يبيّن الإسناد طريق الخبر ويعرض المتن الكلام المنقول. وبقراءة الطريق تتضح أسئلة الاتصال والانقطاع، وبقراءة النسبة يتميز المرفوع والموقوف والمقطوع.

الإسناد والمتن: طريق الحديث ونصه

تعريفان يفتحان القراءة

الإسناد هو ذكر طريق الرواية إلى صاحبها، بأسماء ناقلها والألفاظ التي تبين نقل بعضهم عن بعض؛ ويستعمل المحدثون «السند» و«الإسناد» أيضًا للدلالة على هذا الطريق. والمتن هو الكلام الذي ينتهي إليه السند: ألفاظ الخبر المنقول، سواء كان قولًا أو وصفًا لفعل أو غير ذلك. بهذا يجب الإسناد عن سؤال «ممن نقل؟»، ويجب المتن عن سؤال «ماذا نقل؟». وقد ينتهي الخبر إلى النبي ﷺ أو إلى غيره؛ فوجود إسناد لا يجعل كل كلام بعده حديثًا نبويًا.

المراجع: 1

إسناد أول حديث في صحيح البخاري

أورد البخاري حديث عمر بن الخطاب في كتاب بدء الوحي، ورقمه 1 في الترقيم المعروف. هذا إسناده مقسمًا عند انتقال الكلام بين رواه؛ أبقينا ألفاظ النقل كما وردت، مع تخفيف التشكيل:

المراجع: 2

المصنّف والصحابي والمتن

البخاري هو المصنّف: صاحب الكتاب الذي يروي هنا عن شيخه الحميدي. أما الصحابي الراوي في هذا الحديث فهو عمر بن الخطاب؛ وبينهما أسماء تبين طريق نقل الخبر. ليس اسم البخاري جزءاً من القول النبوي، كما أن عبارة «أخرجه البخاري» إحالة إلى مصدر، وليست سرّاً كاملاً للإسناد. يبدأ المتن هنا بقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». ويتابع بيان الهجرة إلى دنيا أو امرأة، وينتهي في هذا الموضع بعبارة «فهجرته إلى ما هاجر إليه». يساعد تحديد البداية والنهاية على فصل كلام النبي ﷺ عن أسماء الناقلين وتعليقات الشارح.

المراجع: 3

اتجاه القراءة واتجاه انتقال الخبر

نقرأ الإسناد في الكتاب من البخاري إلى شيوخه، حتى نصل إلى عمر ثم النبي ﷺ. وإذا أردنا تتبع انتقال الخبر إلى البخاري، بدأنا بعمر الذي سمع النبي ﷺ، ثم علقمة، ثم محمد بن إبراهيم، ثم يحيى، ثم سفيان، ثم الحميدي. هذان اتجاهاً لعرض الطريق نفسه. وكلما نقل الراوي ما تلقاه صار شيخاً لمن أخذ عنه؛ فتسميتا الشيخ والتلميذ تصفان العلاقة بين ناقلين في موضع محدد.

المراجع: 4

ما الذي تخبرنا به صيغ الأداء؟

«حدثنا» و«أخبرني» و«سمعت» تسمى صيغ أداء؛ ينقل بها الراوي كيفية تلقيه الخبر. في مثالنا يصرح «سمعت» بالسماع، ويقول يحيى «أخبرني» عند ذكر محمد بن إبراهيم. وليست هذه الألفاظ زينة يمكن حذفها عند دراسة الطريق. كما لا نضع لكل لفظ معنى

واحدًا في جميع الكتب والعصور؛ فقد استعمل بعض العلماء «أخبرنا» فيما سمعوه من لفظ الشيخ. لذلك تحفظ المقارنة لفظ الراوي وتراعي اصطلاحه.

المراجع: 5، 6

الحديث نفسه من طريق آخر

في صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث 1907أ، يبدأ الطريق بعبد الله بن مسلمة بن قعنب، ثم مالك، ثم يحيى بن سعيد. يلتقي الطريقان عند يحيى، وبعده محمد بن إبراهيم وعلقمة وعمر. وفي متن مسلم «بالنية» بالإنفراد، وترد جملة الهجرة إلى الله ورسوله؛ بينما يبدأ المتن في موضع البخاري الأول بـ«بالنيات»، ولا ترد فيه تلك الجملة. هذه مقارنة بين موضعين محددين؛ لا تعني أن هذا اللفظ غائب عن جميع روايات البخاري. وهي تبين لماذا نوثق اللفظ الذي قرأناه، بدل تركيب نص من الذاكرة ونسبته إلى موضع واحد.

المراجع: 7، 8

من معرفة الأجزاء إلى فهم فائدتها

تجعل معرفة الإسناد والتمتن المقارنة ممكنة: أين اتفقت الروايات؟ وأين اختلف ناقل أو لفظ؟ ثم يدرس المختص الاتصال وأحوال الرواة والقرائن. ويبين ابن الصلاح أن العلة قد تقع في الإسناد أو المتن؛ لذلك فإن معرفة أسماء ثقاة وحدها لا تستكمل دراسة الحديث. ابدأ الآن بمهارة واضحة: عَيِّن الطريق والنص، ثم اكتب إحالة تَمَكِّن غيرك من الرجوع إلى الرواية نفسها.

المراجع: 9

الاتصال والانقطاع وأنواعه

الاتصال علاقة نقل لا مجرد قائمة أسماء

المتصل هو ما اتصل طريقه إلى منتهاه؛ فكل راوٍ أخذه عن فوقه بطريق تحمل معتبر. ويذكر ابن الصلاح أن الاتصال يصدق على ما انتهى إلى النبي ﷺ وعلى ما انتهى إلى الصحابي. فهو وصف لطريق الخبر، وليس حكماً بأن نهايته نبوية، ولا شهادة مكتملة بصحته. فقد يكون الطريق متصلًا وفي أحد رواته ضعف، وقد يكون صحيحًا إلى قول صحابي.

ولا تكفي معاصرة رجلين لإثبات سماع كل خبر بعينه بينهما. يستفيد النقاد من صيغ الأداء وتواريخ الولادة والوفاة والرحلة وأخبار اللقاء والسماع. وقد يقع الانقطاع ظاهراً، كأن يروي شخص عن رجل مات قبل ولادته، وقد يخفى مع إمكان اللقاء في الظاهر. ولذلك يشبه اتصال السند إثبات العلاقات بين الأسماء، لا مجرد كتابة الأسماء في ترتيب.

المراجع: 10، 11

المعنعن: ماذا تفيد كلمة «عن»؟

المعنعن هو ما قال فيه الراوي «عن فلان» بدل التصريح بـ«سمعت» أو «حدثني». يحمل مسلم عنعنة الثقة غير المدلس على الاتصال إذا عاصر من روى عنه وكان لقاؤهما ممكناً ولم يقدّم دليل على انقطاع الرواية. أما ابن حجر فاختار اشتراط ثبوت اللقاء ولو مرة، ونسب هذا إلى علي بن المديني والبخاري. والخلاف هنا في القرينة الكافية لقبول العنعة، لا في اشتراط التصريح بالسماع في كل حديث.

فإذا قال ثقة غير مدلس «عن شيخه»، ننظر إلى معرفتنا بالعلاقة بينهما وإلى قرائن النقل. أما رواية المدلس بصيغة محتملة فلها بحث خاص؛ لأنه قد يروي عن لقيه ما لم يسمعه

منه. يفسر هذا لماذا جمع المحدثون أخبار الرحلات والسماع واللقاء إلى جانب تواريخ الرواة: هذه المعلومات تساعد على قراءة الصيغة القصيرة قراءة دقيقة.

المراجع: 12

المعلق والمرسل

المعلق هو ما حذف من أول سنده راو أو أكثر على التوالي، والمراد بالأول جهة المصنف. فإذا ذكر مصنف متأخر قولاً نبوياً بلا طريقه إليه، فقد حذف أول الإسناد، وربما حذفه كله. هذا وصف لطريقة إيراد الخبر في ذلك الموضع؛ وقد يوجد الخبر نفسه موصولاً في موضع آخر، فلا يلزم أن تكون جميع طرقه معلقة.

والمرسل في الاصطلاح المشهور هو أن ينسب التابعي الخبر إلى النبي ﷺ من غير ذكر الوساطة. والتابعي لقي الصحابة ولم يلق النبي مؤمناً به، فلا يكون هذا سماعاً مباشراً منه. منشأ البحث أن الطريق المحذوف لم يتبين لنا كله؛ ولا يصح افتراض أن كل إرسال يخفي صاحبياً واحداً فقط. وقد استعمل بعض العلماء كلمة المرسل بمعنى أوسع يشمل صوراً أخرى من الانقطاع.

وحكم المرسل عند جمهور نقاد الحديث الضعف لعدم معرفة الوساطة المحذوفة وحالها. وقد يقوى بما يعضده من طريق معتبر أو دليل آخر، وللفقهاء مذاهب وتفصيل في الاحتجاج بالمراسيل. لذلك يشرح ابن الصلاح صورة الإرسال ثم ينتقل إلى حجتة: فمعرفة نوع السند تمهد لفهم حكمه، لكنها لا تختصر اختلاف أهل العلم في جميع صورته.

المراجع: 11، 13

المعضل والمنقطع

إذا سقط من السند اثنان فأكثر متتابعون، كان معضلاً. والتتابع قيد مهم: سقوط رجل من موضع ورجل آخر من موضع بعيد ليس الصورة نفسها. أما المنقطع فيستعمل استعمالاً

عاماً في كل سند لم يتصل، ويستعمل في التقسيم المفصل لما خرج عن الصور الخاصة السابقة، كفقْد رِاؤ في أثناء الطريق أو فقْد رِواة في مواضع غير متتابعة.

ويُفسر هذا اختلاف بعض التعريفات من غير أن يكون كل اختلاف تناقضاً؛ فقد يقصد المؤلف بالمنقطع الجنس العام، وقد يقصد نوعاً في مقابل المرسل والمعضل. والمقصود العلمي بعد الاسم هو تحديد موضع الفجوة: بين من ومن؟ وكَم واسطة سقطت؟ وهل كشفتها رواية أخرى؟ هذه المعلومات تبين أثر الانقطاع أكثر مما يبينه حفظ اللقب وحده.

المراجع: 14، 15، 11

تطبيق على طريق حديث النيات

في أول صحيح البخاري يروي الحميدي عن سفيان، ثم يحيى بن سعيد، ثم محمد بن إبراهيم، ثم علقمة بن وقاص، ثم عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ. وتظهر في هذا الموضع ألفاظ التحديث والإخبار والسماع على امتداد الطريق. نرى بذلك كيف تُذكر حلقات النقل، وكيف يبين كل رِاؤ صلته بالخبر الذي يؤديه.

وللتوضيح المجرد، لو حذف ناقل من هذا العرض اسم محمد بن إبراهيم ووصل يحيى بعلقمة، لم يعد عرضه ممثلاً للطريق المذكور في البخاري. هذه صورة افتراضية لشرح معنى الفجوة، وليست اتهاماً لأحد رواة الحديث ولا رواية بديلة له. فالخبر الصحيح يبقى صحيحاً بطريقه الثابت، بينما يحتاج أي طريق مختصر أو مختلف إلى وصفه وتحقيقه على حدة.

المراجع: 16

مراتب النسبة: المرفوع والموقوف والمقطوع

إلى من ينتهي الخبر؟

المرفوع هو ما أضيف إلى النبي ﷺ، سواء أكان قولاً أم فعلاً أم تقريراً أم صفة. والرفع يحدد الجهة المنسوب إليها الخبر؛ لذلك يدخل فيه من حيث هذا الوصف ما صح وما ضعف، وما اتصل وما انقطع. فإذا قال تابعي: قال رسول الله ﷺ، فخبيره مرفوع من جهة النسبة، ومرسل من جهة الطريق. ليس في اجتماع الوصفين تناقض، لأن كلا منهما يجيب عن سؤال مختلف.

والموقوف ما أضيف إلى الصحابي من قوله أو فعله، من غير أن ينسب إلى النبي. أما المقطوع فهو ما أضيف إلى التابعي أو من بعده. لا تعني هذه الأسماء ترتيب الناس في صدق كل خبر بعينه؛ فقد يثبت القول عن تابعي ولا يثبت خبر يُنسب إلى النبي. ولا تعني كلمة «مقطوع» أن الإسناد منقطع؛ فالأولى هنا وصف للنسبة، والثانية وصف لفجوة في الطريق.

المراجع: 17، 18، 19

مثال يجمع المرفوع والموقوف

في صحيح البخاري يروي عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ أخذ بمنكبه وقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». ثم يعقب الخبر بأن ابن عمر كان يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح». الجملة الأولى مرفوعة لأنها من كلام النبي، والثانية موقوفة لأنها من كلام ابن عمر. وقد اجتمعتا تحت رقم حديث واحد، لكن وحدة الموضع لا تجعل قائلهما واحداً.

توضح عبارة ابن عمر أثر الوصية في فهمه واستعداده للعمل؛ فهو يربط قصر الإقامة باغتنام الصحة والحياة. وتساعد معرفة المتكلم على قراءة هذا البناء: تعليم نبوي يتلوه

توجيه صحابي متصل بمعناه. فقولنا إن الجزء الثاني موقوف لا يلغيه من المعرفة، بل يحفظ نسبته الصحيحة ويمنع أن ننقل شرح الصحابي على أنه لفظ قاله النبي.

المراجع: 20

المقطوع والرفع الحكمي

ومن المقطوع قول محمد بن سيرين الذي أورده مسلم في مقدمته عن عناية العلماء بتسمية رجال الإسناد. فابن سيرين تابعي يصف شأن الرواية، ويسوق مسلم طريقه إلى هذا القول. فاندت أنه شهادة من عالم على ممارسة علمية، وليس أمراً نبوياً لمجرد وجوده في كتاب من كتب الحديث. وهذا يفسر كثرة أقوال العلماء في مقدمات المصنفات وأبواب العلم.

وقد تكون عبارة الصحابي موقوفة في صورتها اللفظية، ولها حكم الرفع لقريئة تدل على مصدرها. يذكر ابن الصلاح مثال قول الصحابي «أمرنا» أو «نهينا» في الأحكام، ويقرر أن جمهور أهل العلم يحملون ذلك على الأمر والنهي النبويين. فالرفع الحكمي استدلال على الجهة المقصودة، وليس إدنا بتحويل كل رأي لصحابي إلى حديث مرفوع.

المراجع: 21، 19

لماذا يؤثر هذا الفصل في الفهم؟

قد ينشأ خطأ في النقل من ضم تعليق إلى نص، أو من حذف العبارة التي تحدد المتكلم. وقد ينشأ خطأ في البحث من عدّ الموقوف شاهداً مرفوعاً من غير دليل. لذلك تتكامل معرفة النسبة مع دراسة الطريق: نبحث أولاً عن نسب إليه الخبر، ثم عما يثبت هذه النسبة، ثم عن دلالاته. وفي مثال ابن عمر لم نحتج إلى إلغاء إحدى الفقرتين؛ احتجنا إلى إبقاء الحد الفاصل الذي أثبتته النقل بين كلام الرسول وفهم الصحابي.

المراجع: 20، 17

مراجع الفصل

1. المنهل الروي لابن جماعة — تعريف المتن والسند والإسناد

المقدمة، ص 29-30؛ تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1406 هـ. هذا تعريف ابن جماعة للمتن في المقدمة. ويشرح في الموضوع التالي الإسناد بأنه رفع الحديث إلى قائله، ثم يذكر أن المحدثين يستعملون السند والإسناد لشيء واحد.

المرجع الأصلي

2. صحيح البخاري — حديث النيات، رقم 1

كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث 1.

النص العربي لحديث البخاري 1، مع تخفيف التشكيل وتنظيم الترقيم. قبل القول بين علامتي التنصيص يظهر إسناد الرواية؛ وبعده متن هذا الموضوع.

المرجع الأصلي

3. صحيح البخاري — حديث النيات، رقم 1

صحيح البخاري، حديث 1، الحد الفاصل بين «يقول» و«إنما الأعمال بالنيات».

يعرض المقتطف المتن النبوي الذي رواه عمر. البخاري هو المصنف، وعمر الصحابي الذي سمع النبي؛ فلا يؤدي الاسمان الوظيفة نفسها.

المرجع الأصلي

4. صحيح البخاري — حديث النيات، رقم 1

صحيح البخاري، حديث 1، ترتيب أسماء الإسناد.

هذا هو القول الذي نُقل في السند السابق. قراءة أسماء السند من البخاري إلى عمر عكس الترتيب الزمني الذي انتقل فيه الخبر من النبي إلى المصنف.

المرجع الأصلي

5. مقدمة ابن الصلاح — السماع وصيغ الأداء

النوع الرابع والعشرون، السماع من لفظ الشيخ، ص132-133.

يفتح ابن الصلاح هنا القسم الأول من طرق التحمل. ويعرض بعده الصيغ التي يستعملها الراوي، مع مناقشة ما قد يوهمه اختلاف الاصطلاح.

المرجع الأصلي

6. مقدمة ابن الصلاح — استعمال «أخبرنا» في السماع

النوع الرابع والعشرون، ص134.

في ص134 يسمي ابن الصلاح عددًا من هؤلاء العلماء. العبارة مقتطف من كلامه مع تخفيف التشكيل؛ وهي تبين أن «أخبرنا» استعملت في السماع من لفظ الشيخ.

المرجع الأصلي

7. صحيح مسلم — حديث النيات، رقم 1907أ

كتاب الإمارة، حديث 1907أ؛ الترقيم داخل الكتاب: 33، حديث 222.

النص العربي لرواية مسلم 1907أ، مع تخفيف التشكيل وتنظيم الترقيم. يحتفظ هذا النص بإسناده ولفظه مستقلين عن رواية البخاري.

المرجع الأصلي

8. صحيح البخاري — حديث النيات، رقم 1

كتاب بدء الوحي، حديث 1.

هذا متن رواية البخاري التي نقارن طريقها برواية مسلم المذكورة معها. يلتقي الطريقتان المعروفان عند يحيى بن سعيد الأنصاري.

المرجع الأصلي

9. مقدمة ابن الصلاح — العلة في الإسناد والتمتن

النوع الثامن عشر، معرفة الحديث المعلن، ص91.

يلي هذا البيان في ص91 مثالٌ روي فيه اسم «عمرو بن دينار»، ويبين ابن الصلاح أن الصواب «عبد الله بن دينار»، مع أن كليهما ثقة؛ فأظهرت مقارنة الطرق موضع الخطأ.

المرجع الأصلي

10. علوم الحديث — معرفة المتصل

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الخامس، تعريف المتصل وأمثلته المرفوعة والموقوفة
يبيّن أن الاتصال وصف للطريق يمكن أن يجتمع مع الرفع أو الوقف.

المرجع الأصلي

11. نخبة الفكر — السقط من الإسناد

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — قسم المردود: السقط؛ المعلق والمرسل والمعضل والمنقطع
يرتب صور السقط بحسب موضعه وعدده وتتابعه، ويربط كشفه بمعرفة تواريخ الرواة.

المرجع الأصلي

12. نزهة النظر: شروط الاتصال والعننة

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — موازنة شرط الصحيحين في الاتصال؛ ثم المعنعن والتدليس والمرسل الخفي

يعرض ابن حجر الفرق بين الاكتفاء بالمعاصرة الممكن معها اللقاء وإثبات وقوعه، ويفرق بين عننة غير المدلس ورواية المدلس بصيغة محتملة.

المرجع الأصلي

13. علوم الحديث — معرفة المرسل

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع التاسع، صورة إرسال التابعي واختلاف إطلاق المرسل يفسر الصورة المشهورة للمرسل ووجود استعمال أوسع للكلمة في بعض كتب العلم.

المرجع الأصلي

14. علوم الحديث — معرفة المعضل

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الحادي عشر، تعريف المعضل وأمثلة حذف الوسائط يدعم التمييز بين مجرد الانقطاع وبين سقوط عدة وسائط من الطريق.

المرجع الأصلي

15. علوم الحديث — معرفة المنقطع

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع العاشر، مذاهب العلماء في المنقطع والفرق بينه وبين المرسل يبين اختلاف سعة المصطلح، وضرورة معرفة استعمال المؤلف عند وصف الأسانيد.

المرجع الأصلي

16. صحيح البخاري — حديث النيات

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب بدء الوحي، الحديث 1

طريق صحيح محدد تستخدم أسماؤه وصيغ أدائه لشرح الاتصال، مع فصل المثال الافتراضي عن الرواية الفعلية.

المرجع الأصلي

17. علوم الحديث — معرفة المرفوع

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع السادس، تعريف المرفوع ودخول الاتصال والانقطاع عليه يبين استقلال جهة النسبة عن اتصال الإسناد، ويؤسس لإمكان اجتماع الرفع والإرسال.

المرجع الأصلي

18. علوم الحديث — معرفة الموقف

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع السابع، الموقف الموصول وغير الموصول
يحدد معنى الوقف على الصحابي، مع بيان أن طريقه قد يكون متصلًا أو غير متصل.

المرجع الأصلي

19. علوم الحديث — المقطوع وتفرعات الرفع

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثامن، تعريف المقطوع والتفريع الثاني في «أمرنا» و«نهينا»
يفصل المقطوع عن المنقطع، ويشرح بعض القرائن التي تحمل كلام الصحابي على الرفع حكمًا.

المرجع الأصلي

20. صحيح البخاري — كن في الدنيا كأنك غريب

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الرقاق، باب قول النبي كن في الدنيا كأنك غريب، الحديث 6416
يجمع نَصًا نبويًا وتعليق ابن عمر مع الفصل الصريح بين المتكلمين؛ وهو التطبيق الرئيس للدرس.

المرجع الأصلي

21. مقدمة صحيح مسلم — قول ابن سيرين في الإسناد

مسلم بن الحجاج — الرواية 26 داخل المقدمة؛ عنوان الصفحة Introduction 27

مثال مسند إلى تابعي، يبين أن رواية كلام العلماء في كتب الحديث لا تجعله كلامًا نبويًا.

المرجع الأصلي

الصحيح والحسن والضعيف والمتواتر والآحاد

تجيب أوصاف الحديث عن أسئلة مختلفة: ثبوت الرواية، وعدد طرقها، ونوع البحث فيها. يشرح هذا الفصل هذه الفروق بأمثلة من المادة الموجودة.

موضوع علوم الحديث: الرواية والدراية

العلم بالخبر والعلم بطريقه

تبحث علوم الحديث في الأخبار المنقولة وأحوال ناقليها، وأشرف مادتها ما نسب إلى النبي ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات وصفات. والخبر المنقول له جانب يجيب عن سؤال: ماذا قيل أو حدث؟ وجانب يجيب عن سؤال: كيف وصل إلينا؟ وتلتقي العناية بالجانبين في حفظ السنة وتمييز ما يثبت منها. لذلك لا تختزل هذه العلوم في حفظ ألفاظ الأحاديث، ولا في قائمة أسماء الرواة؛ وإنما تدرس الصلة بين النص وطريق نقله.

ينقل السيوطي عن ابن الأكفاني تعريف علم الحديث رواية بما يشمل نقل الأقوال والأفعال وضبطها وتحرير ألفاظها. فالرواية عمل في المادة نفسها: سماعها وأداؤها وتمييز لفظ ناقل من لفظ آخر. أما الدراية فتبحث في القواعد التي يعرف بها حال الرواية والراوي، كالقبول والرد والاتصال والانقطاع. وهي بهذا المعنى الاصطلاحي أوسع من مجرد فهم المعنى اللغوي للحديث.

المراجع: 1

السند والمتن جزآن من دراسة واحدة

السند هو الطريق المؤلف من الرواة الذين نقل بعضهم عن بعض، والمتن هو الكلام الذي ينتهي إليه هذا الطريق. وقد ينتهي الخبر إلى النبي ﷺ، وقد يكون كلام صحابي أو تابعي. وجود اسم شخص في السند لا يعني أنه صاحب جميع العبارات الواردة بعده؛ بل تكشف صيغ النقل من روى ومن قال. ومن هنا كانت دقة النسبة جزءاً من دقة المعنى.

عندما يصف ابن الصلاح الحديث الصحيح، لا يكتفي بذكر صدق ناقله؛ يضم إلى ذلك اتصال الطريق والضبط والسلامة من الشذوذ والعلّة. فدراسة الأسماء وحدها لا تستوعب النقد، كما أن استحسان مضمون العبارة لا يثبت نسبتها. وقد يكون الكلام حسن المعنى، لكن الطريق الذي يُنسب به إلى النبي لا يحقق شروط القبول.

المراجع: 1، 2

تطبيق: خبر مالك بن الحويرث

روى البخاري عن مالك بن الحويرث خبر شباب أقاموا عند النبي ﷺ عشرين يوماً وليلة، ثم وجههم إلى الرجوع إلى أهلهم وتعليمهم. وفيه قوله: «وصلوا كما رأيتموني أصلي». مادة الرواية هنا ليست جملة منفردة؛ فيها وصف جماعة من المتعلمين، وزمن إقامتهم، وشوقهم إلى أهلهم، وتوجيهات للصلاة. حفظ هذه التفاصيل من عمل الرواية، لأنها تعرّفنا بالموقف الذي قيل فيه الكلام.

أما النظر العلمي في الخبر فيميز كلام النبي من حكاية مالك، ويعرف مصدر الحديث وطريقه، ثم يصل الأمر بالصلاة بالمشاهدة التي سبقت ذلك. ويظهر من المثال أن الفعل النبوي قد يكون تعلّماً ينقله وصف الصحابي. كما يظهر أن شرح الحديث يستفيد من سياق الرواية؛ فالرحمة بالمتعلمين وتعليمهم أهلهم جزء من القصة، وليسوا إضافتين تخيلهما الشارح.

المراجع: 3

من المصطلح إلى الفهم

تتكامل هذه الأعمال من غير أن تتطابق: نقل الرواية بحفظ مادتها، والنقد يبحث في ثبوتها، والشرح يبين لغتها وسياقها ودلالاتها. وحين يختلف لفظان لا تكفي تسمية الاختلاف؛ فقد يكون تنوعاً محفوظاً، وقد يكون اختصاراً، وقد يكشف خطأ في النقل. ولهذا يبني طالب العلم فهمه للمصطلح على أمثلة محددة: أي جزء من الخبر تصفه الكلمة، وما السؤال الذي تجيب عنه؟ بهذه الصلة تصبح التعريفات أدوات لفهم الروايات، لا أسماء منفصلة عن استعمالها.

المراجع: 2، 3

شروط الصحيح والحسن والضعيف

الصحة حكم له شروط

الصحيح لذاته خبر اتصل سنده بنقل رواة عدول تامي الضبط، وسلم من الشذوذ والعلة القاذحة. يتعلق الاتصال بوصول كل راوٍ إلى من نقل عنه بطريق معتبر، وتتعلق العدالة باستقامته وصدقه، والضبط بإتقانه ما يؤديه. فصدق الإنسان شيء، وقدرته على حفظ الأسماء والألفاظ والتمييز بينها شيء آخر. وقد تجتمع الاستقامة مع ضعف الذاكرة، فلا يغني أحد الشرطين عن الآخر.

ويبقى بعد النظر في الطريق والرواة سؤال المقارنة. فالشذوذ، في التعريف الذي اعتمده ابن حجر هنا، مخالفة الراوي المقبول لمن هو أرجح منه، والعلة القاذحة سبب خفي يؤثر في صحة الخبر مع أن ظاهره السلامة. لهذا لا يكفي أن تبدو أسماء الإسناد مقبولة؛ فقد يكشف جمع الروايات أن لفظاً أدخل في الخبر أو أن وصلاً وقع فيه وهم.

المراجع: 4

الحسن ودرجات التقوية

الحسن لذاته يشترك مع الصحيح في بقية شروط القبول، لكن ضبط راويه أخف من ضبط راوي الصحيح، من غير أن ينزل إلى سوء الحفظ المردود. ويصف ابن الصلاح أحد قسمي الحسن بأن ناقله معروف بالصدق والأمانة، لكنه دون رجال الصحيح في الإلتقان. فالحسن ليس خبراً عرفنا كذبه ثم تساهلنا فيه، بل مرتبة من الرواية المقبولة لها قدر من الثقة دون المرتبة الأعلى.

وقد تأتي للخبر روايات مستقلة تقويه. فإذا انضم إلى الحسن لذاته ما يجبر نقص ضبطه، سمي الصحيح لغيره. وقد يجبر ضعف غير شديد بمتابعات وشواهد معتبرة، فيسمى الحسن لغيره. والمقصود بالمجموع اجتماع أدلة لها قيمة، لا تكرار الطريق الضعيف نفسه في كتب متعددة. أما تعدد الأخبار المتهمة بالكذب، فلا يحولها بمجرد العدد إلى خبر مقبول.

المراجع: 5، 6

الضعف لا يعني دائماً الاختلاق

الضعيف هو ما لم تتوافر فيه شروط الصحيح ولا الحسن. وأسبابه متفاوتة؛ فقد يكون في السند راو مجهول الحال، أو انقطاع، أو سوء حفظ، أو مخالفة قاذحة. ومن ثم لا تحمل كلمة «ضعيف» وحدها بيان السبب ودرجته. وقد تجتمع أسباب متعددة في خبر واحد، فيشتد ضعفه مقارنة بخبر فقد شرطاً يمكن أن يجبره دليل آخر.

أما الموضوع فهو الخبر المختلق المنسوب إلى النبي ﷺ كذباً، وليس اسماً لكل ما لم يصح. يوضح ابن الصلاح أن نفي الصحة لا يساوي القطع بالكذب في نفس الأمر. ومن ثمرات هذا الفرق أن عبارة «لم يثبت بهذا الطريق» تصف مقدار الدليل المتاح، بينما «ثبت أنه مختلق» تتضمن حكماً آخر يحتاج إلى ما يدل عليه.

المراجع: 7، 8

تطبيق: الحلال والحرام والشبهات

أخرج البخاري حديث النعمان بن بشير: «الحلال بين والحرام بين». وفي سنده يقول عامر إنه سمع النعمان، ويقول النعمان إنه سمع رسول الله ﷺ. هذه الألفاظ تظهر تلقياً مباشراً في هاتين الوصلتين. وينتقل المتن من بيان المشتبهات إلى مثال الراعي قرب الحمى، ثم إلى أثر صلاح القلب؛ فهو بناء تعليمي متصل، وليس مجموعة حكم متفرقة. نعتد صحة هذا المثال على تخريجه في صحيح البخاري، ولا نستنتجها من بلاغته أو من وجود كلمة «سمعت» وحدها. فالألفاظ المذكورة توضح جانب الاتصال، أما بقية شروط الصحة فموضوع عمل النقاد. وهكذا يفرق التطبيق بين رؤية علامة معينة في السند وبين استكمال الحكم على الحديث بجميع عناصره.

المراجع: 9

المتواتر والأحاد: عدد الطرق ومعنى الثبوت

المتواتر وصف لطريقة وصول الخبر

المتواتر خبر تنقله جماعات يمتنع في العادة تواطؤها أو توافقها على الكذب، عن مثلهما إلى أصل الخبر، ويكون مستندها الحس كالسماع والمشاهدة. ويذكر ابن حجر حصول العلم لسماعه ضمن شروطه. فالمقصود ليس مجرد رقم كبير في آخر الطريق، بل كيفية نقل تمنح اليقين بالخبر من مجموعها.

ومعنى استناد الخبر إلى الحس أن أصل الإخبار عما سمع أو شوهه، لا عن رأي توصل إليه جماعة بالنظر. كما أن استمرار الشرط في طبقات النقل أساسي؛ فلو تلقى مئات الأشخاص خبراً عن رجل واحد، أثبت اجتماعهم ما نقله ذلك الرجل، لكنه لا يجعل مصدره الأول جماعة. والعدد المؤثر مرتبط بحال النقل، فلا يعرض هذا التعريف رقماً واحداً بوصفه حداً متفقاً عليه في كل خبر.

الأحاد لا تعني دائماً راويًا واحدًا

الأحاد ما لم يجمع شروط المتواتر. ويدخل فيه المشهور والعزیز والغريب في التقسيم الاصطلاحي: فالمشهور له ثلاثة رواة فأكثر في طبقاته من غير بلوغ التواتر، والعزیز يكون أقل عدد لرواته في طبقة من طبقاته اثنين، والغريب ينفرد به راوٍ في موضع من الطريق. والعبرة بالطبقة الأقل عددًا، لا بجمع أسماء جميع من رواه عبر القرون.

هذه أسماء تصف انتشار الرواية، وليست أحكامًا جاهزة بقبولها. ففي الأحاد الصحيح والحسن والضعيف، ويبحث في أحوال ناقله وطرقهم. كما أن «المشهور» قد تستعمل خارج هذا التقسيم بمعنى المتداول بين الناس أو بين طائفة من أهل العلم. فقد تشتهر عبارة على الألسنة مع أن طريقها لا يثبت، وقد يصح حديث لا يعرفه عامة الناس.

والصحيح من الأحاد حجة يجب العمل بها عند جمهور أهل العلم. أما مقدار العلم الذي يفيد فله تفصيل: يختار ابن حجر أن خبر الأحاد قد يفيد العلم النظري إذا احتقت به قرائن معتبرة، وأن الصحيح المجرد منها يفيد الظن الراجح. فدرجة اليقين تتصل بالقرائن وأحوال النقل، وليست نتيجة حساب عدد الرواة وحده.

حديث النيات: غريب في أصله، مشهور بعد يحيى

يضرب ابن الصلاح بحديث النيات مثلاً على التفرد الصحيح: انفرد به عمر، ثم علقمة بن وقاص، ثم محمد بن إبراهيم، ثم يحيى بن سعيد، بحسب الطرق الصحيحة المعروفة عند أهل الحديث. ثم كثر ناقلوه بعد ذلك. فانتشاره الواسع لا يغير صورة طبقاته الأولى؛ ولهذا لا يصير متواتراً لمجرد شيوعه بعد يحيى.

وفائدة المثال أن الغرابة لا تساوي النكارة، كما أن التفرد لا يساوي الخطأ. فقد أخرج أصحاب الصحيح هذا الحديث وقبلوه، مع معرفتهم بتفرد أوائل طريقه. السؤال النقدي

يتعلق بأهلية الناقل وبالقرائن المحيطة بروايته، أما سؤال التواتر فيتعلق بتحقق وصف آخر في مجموع طبقات النقل.

المراجع: 11، 12

تطبيق آخر: الوعيد على الكذب

يذكر ابن الصلاح حديث الوعيد على الكذب على النبي ﷺ مثلاً للتواتر، وينقل كثرة من رواه من الصحابة. وفي صحيح البخاري رواية أنس بلفظ: «من تعد علي كذباً»، وفي الموضوع التالي رواية سلمة التي تنتهي عن نسبة كلام إلى النبي لم يقله. نتيج هاتان الروايتان رؤية مثالين فعليين من اختلاف مخارج الخبر.

ولا تستقل هاتان الصفحتان بإثبات جميع شروط التواتر؛ حكم ابن الصلاح مبني على مجموعة أوسع من الطرق. ومن هذا المثال نفهم الفرق بين عرض عينة من الأدلة وبين دعوى استيعابها. كما نفهم أن نقل لفظ حديث بعينه يحتاج إلى عزوه لروايته، ولو كانت معاني الوعيد ثابتة في أخبار كثيرة متقاربة.

المراجع: 11، 13، 14

مراجع الفصل

1. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي

جلال الدين السيوطي، ناقلًا تعريف ابن الأكفاني — مقدمة السيوطي، الفائدة الأولى في حد علم الحديث، ص 25-28 في العرض

يجمع تعريف الرواية والدراية، ويبين موضوع السند والمتن؛ وهو أساس التمييز بين حفظ المادة وقواعد نقدها.

المرجع الأصلي

2. علوم الحديث — معرفة الصحيح

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الأول، تعريف الصحيح والتنبيه على معنى الحكم بالصحة يبين أن الحكم على النقل لا يقوم على مضمون الخبر وحده، بل على شروط متكاملة في الرواية.

المرجع الأصلي

3. صحيح البخاري — تعليم الصلاة

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الأذان، الحديث 631، رواية مالك بن الحويرث يوفر التطبيق الذي يجتمع فيه القول والفعل والسياق، ويظهر الفرق بين حكاية الصحابي والكلام النبوي.

المرجع الأصلي

4. نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — تعريف الصحيح لذاته والحسن لذاته، ثم المحفوظ والشاذ والوهم أصل صياغة شروط الصحيح والفرق بينه وبين الحسن، وتفسير أثر المخالفة والعلة.

المرجع الأصلي

5. علوم الحديث — معرفة الحسن

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثاني، قسما الحسن والتنبيهات المتعلقة باعتضاد الطرق يشرح تفاوت الحفظ، وأن بعض صور الضعف تتجبر بالموافقة المعتمدة دون أن تكون كل رواية صالحة للتقوية.

المرجع الأصلي

6. نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — تحقيق عبد المحسن القاسم، ص 120، الصحيح لغيره يفسر انتقال الحسن إلى الصحيح لغيره بقوة مجموع الطرق وجبر النقص في الضبط.

المرجع الأصلي

7. علوم الحديث — معرفة الضعيف

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثالث، الضابط الجامع لأقسام الضعيف
يؤسس لتعريف الضعيف وتفاوت أسبابه واجتماع أكثر من سبب في خبر واحد.

المرجع الأصلي

8. علوم الحديث — معنى نفي الصحة

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الأول، التنبيه بعد تعريف الصحيح
يفرق بين عدم تحقق شروط الثبوت وبين القطع بأن الخبر كذب.

المرجع الأصلي

9. صحيح البخاري — الحلال والحرام

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الإيمان، باب فضل من استبأ لدينه، الحديث 52
مثال صحيح تظهر فيه صيغ السماع، ويبين لماذا لا يغني فحص وصلة واحدة عن النظر في شروط
الحكم كلها.

المرجع الأصلي

10. نزاهة النظر في توضيح نخبة الفكر

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — أقسام الخبر باعتبار طرقه؛ شروط المتواتر والمشهور والعزيز
والغريب، النص العربي

يبين شروط التواتر ودلالة التقسيم العددي، وأن الأقسام الأخرى تدخل في الأحاد.

المرجع الأصلي

11. علوم الحديث — معرفة المشهور

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الموفي ثلاثين، اختلاف الشهرة ومثال الوعيد على الكذب يفرق بين الشهرة والصحة، وينفي تواتر حديث النيات في أصله ويذكر مثالا للمتواتر.

المرجع الأصلي

12. علوم الحديث — معرفة الشاذ

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثالث عشر، مناقشة التفرد ومثال حديث النيات يسمى طبقات التفرد في حديث النيات ويبين أن تفرد العدل المتقن لا يرد على الإطلاق.

المرجع الأصلي

13. صحيح البخاري — رواية أنس في الوعيد على الكذب

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي، الحديث 108

نص صحيح من أحد الصحابة الذين نقلوا الوعيد، ويظهر خصوص لفظ هذه الرواية.

المرجع الأصلي

14. صحيح البخاري — رواية سلمة في الوعيد

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب العلم، الباب نفسه، الحديث 109

طريق عن صحابي آخر في المعنى نفسه، يستخدم عينة توضح تعدد المخارج لا استيعاب جميع الطرق.

المرجع الأصلي

كيف نقد العلماء الرواة والروايات؟

جمع العلماء بين معرفة الناقل ومقارنة ما نقل. يشرح هذا الفصل العدالة والضبط والاختلاف والعلل، ثم يبين كيف دخل كشف الكذب والخطأ في خدمة الحديث.

الجرح والتعديل: العدالة والضبط

الثقة بالإنسان والثقة بأدائه

الجرح والتعديل بحث في أهلية الراوي لنقل الخبر: فالتعديل بيان ما يقتضي قبوله، والجرح بيان ما يؤثر في عدالته أو ضبطه. والعدالة تتعلق بالاستقامة والأمانة، أما الضبط فيتعلق بحسن تحمل الرواية وحفظها وأدائها. ليس كل صالح متقناً للرواية، كما أن قوة الذاكرة وحدها لا تجعل صاحبها أميناً. اجتماع هذين الجانبين هو الذي يفسر احتياج المحدثين إلى معرفة الراوي ومعرفة حديثه.

ويبين ابن الصلاح أن الضبط يُعرف بمقارنة روايات الشخص بروايات الثقات المتقين. فإذا كانت الموافقة هي الغالبة والمخالفة نادرة، ظهر إتقانه، وإذا كثرت أخطاؤه ظهر الخلل. فهذا تقدير مبني على المادة المنقولة، لا على الانطباع عن شخصية الراوي. وقد يكشف خطأ في اسم شيخ أو في لفظة معنى لا يظهر لمن يقرأ الرواية منفردة.

المراجع: 1

الحفظ قد يتغير مع الزمن

من دقة هذا البحث التمييز بين الروايات التي أداها الراوي قبل تغير حفظه والتي أداها بعده. فالاختلاط تغير يخل بتمييز ما يرويّه، وقد يطرأ في آخر عمر من كان ثقة متقناً. يذكر ابن الصلاح أن رواية من سمع قبل الاختلاط تقبل من هذه الجهة، أما ما سُمع بعده أو لم يعرف زمنه فلا يعامل المعاملة نفسها.

ويذكر عطاء بن السائب مثلاً، ويبين اعتماد العلماء على رواية من عرفوا أن سماعه منه كان قديماً، كسفيان الثوري وشعبة في الجملة، مع تنبيه إلى استثناءات من مرويات شعبة. فالحكم هنا لا يمحو علم الراوي السابق، ولا يتجاهل تغيره اللاحق؛ بل يربط كل مادة بزمن أخذها. لذلك قد يكون اسم الراوي واحداً، وتختلف قوة الروايات عنه باختلاف تلاميذه وأوقات سماعهم.

المراجع: 2

ألفاظ النقاد أسباب ومراتب

لا تؤدي «ثقة» و«صدوق» و«لين الحديث» و«متروك» معنى واحداً. يعرض السخاوي مراتب التعديل، وينبه إلى فهم مقاصد النقاد من استعمالهم والقرائن. فبعض العبارات يبرز الإتيان، وبعضها يثبت أصل الصدق مع الحاجة إلى مزيد نظر في الأداء. وليس نقل كلمة من ترجمة راوٍ مساوياً لدراسة حاله في الحديث المعين.

وعند اختلاف الجرح والتعديل تظهر أهمية السبب. فقد يعلم ناقد خطأ أو تغيراً لم يطلع عليه غيره، وقد يذكر وصفاً لا يصلح وحده سبباً لإسقاط الرواية. لذلك يشرح ابن الصلاح الحاجة إلى تفسير الجرح. والجمع بين الأقوال يتطلب معرفة القائل وما قصده وما قامت عليه عبارته، بدل عدّ ألفاظ التوثيق والتضعيف كأنها أصوات متساوية في تصويت.

المراجع: 3، 1

تطبيق: التثبت في خبر الاستئذان

في صحيح مسلم أخبر أبو موسى عمّر بقول النبي ﷺ في الرجوع بعد الاستئذان ثلاثاً إذا لم يؤذن للمستأذن. فطلب عمر ما يثبت سماع الخبر، ورجع أبو موسى إلى مجلس الأنصار، فقام معه أبو سعيد الخدري. يبين هذا المشهد قيمة الرجوع إلى من شارك في معرفة الخبر، إذ انضم نقل آخر إلى النقل الأول.

والقصة مثال على التثبت في رواية معينة، وليست قاعدة تشترط شاهدين لكل حديث. فدراسة الرواة أوسع من هذه الواقعة؛ تجمع الصدق والإتقان والمقارنة ومعرفة الأزمنة. وتظهر الصلة بين العلوم السابقة: لا يكفي معرفة صاحب القول أو رسم السند، بل نحتاج إلى معرفة مدى اعتمادنا على أداء من نقلوه.

المراجع: 4، 1

مختلف الحديث والعلل: فهم التعارض وكشف الوهم

سؤالان لا ينبغي دمجهما

قد يبدو للقارئ أن حديثين يقتضيان أمرين متعارضين، وقد يجد الناقد أن بعض الرواة نقل الحديث على وجه غير محفوظ. المسألة الأولى تتعلق بفهم النصوص التي ثبتت، والثانية بتحقيق صورة النقل نفسها. ويساعد هذا الفرق على التمييز بين مختلف الحديث وعلله؛ فحل إشكال المعنى لا يثبت إسناداً ضعيفاً، واكتشاف علة في طريق لا يساوي إسقاط كل ما ورد في موضوعه.

يعرض ابن الصلاح في مختلف الحديث تقديم الجمع الممكن الذي تبقى معه دلالة الخبرين، ثم النظر في النسخ إذا ثبت ما يعين المتقدم والمتأخر عند تعذر الجمع، وإلا فالترجيح. والجمع بيان اختلاف جهة أو حال أو عموم وخصوص، وليس تركيب معنى بعيد لمجرد

التخلص من الإشكال. والنسخ دعوى تاريخية أيضاً، فلا يكفي أن يكون أحد النصين أقصر أو أشد عبارة ليكون متأخراً.

المراجع: 5

تطبيق: النهي عن الكتابة والإذن بها

في صحيح مسلم عن أبي سعيد نهى عن كتابة غير القرآن، وفي صحيح البخاري أمر بكتابة الخطبة لأبي شاه يوم فتح مكة. كلاهما نص ثابت في مصدره، لكن النظر إلى كلمة النهي وحدها أو كلمة الإذن وحدها لا يشرح العلاقة بينهما. وتضيف رواية أبي سعيد نفسها الإذن بالتحديث، فتبين أن محل البحث كتابة العلم، لا منع نقل التعليم النبوي مطلقاً.

يسرد النووي وجوهاً لتفسير العلاقة: اختلاف حال الحافظ وحاجته إلى الكتابة، أو النهي عن جمع الحديث والقرآن في صحيفة واحدة، أو تقدم النهي ثم نسخه بالإذن. فالوجهان الأولان يفسران اختلاف الحال، والثالث يجعل الفرق زمنياً. وهذه أقوال تفسيرية منسوبة إلى العلماء؛ لا تتضمن الروايتان المذكورتان وحدهما تاريخ كل إذن ونهي بحيث نجزم من ألفاظهما بتسلسل واحد.

المراجع: 6، 7، 8

العلة: خطأ يخفيه ظاهر مقبول

العلة القادحة في الاصطلاح الدقيق سبب خفي يؤثر في صحة الرواية مع أن ظاهرها السلامة. ومادتها اختلاف الطرق وقرائن الحفظ والسماع، وقد تتعلق برفع خبر موقوف أو وصل خبر مرسل أو تسمية راوٍ. لذلك لا يكفي أن يقال عن جميع رجال سند إنهم ثقات لإغلاق باب البحث؛ فالثقة قد يخطئ في حديث معين.

يذكر ابن الصلاح رواية يعلى بن عبيد عن سفيان الثوري لحديث «البيعان بالخيار»، وفيها تسمية عمرو بن دينار بين سفيان وابن عمر. ويبين أن أصحاب سفيان روه عن عبد الله

بن دينار، لا عمرو. كلا الرجلين ثقة، لكن محل الخطأ هو تعيين الشيخ الذي حمل عنه هذا الحديث. كشفته المقارنة، ولم تكشفه قائمة توثيق الأسماء وحدها.

المراجع: 9

صحة الأصل لا تصحح كل طريق

يصرح ابن الصلاح بأن المتن في المثال صحيح، مع وقوع العلة في الإسناد المعين. ومن طرق أصل الخبر في البخاري رواية نافع عن ابن عمر في ثبوت الخيار للمتبايعين. فلا يجعل ثبوت الأصل اسم عمرو بدل عبد الله صحيحاً، كما لا يبطل خطأ ذلك الطريق الروايات الأخرى الثابتة. لكل حكم نطاق يبينه الدليل.

وبهذا تنتظم علوم الدروس السابقة: معرفة النسبة تحدد صاحب الخبر، والاتصال والرواية يصفان طريقه، وجمع الطرق يكشف الموافقات والفروق، ثم يفهم المعنى في ضوء النصوص الثابتة. وما لا يترجح للباحث بعد ذلك يبقى غير محسوم لديه؛ فتوقفه وصف لحدود معرفته، وليس برهاناً على تناقض النصوص أو صحتها.

المراجع: 9، 10، 5

إذا وجدت أحاديث مكذوبة، فكيف نتق بالحديث؟

الاعتراف بالمشكلة هو بداية نقدها

لم يبن علماء الحديث عملهم على أن كل من نسب كلاماً إلى الرسول ﷺ كان صادقاً أو مصيباً. ففي الصحيح التحذير الشديد من تعمد الكذب عليه، وفي كتب المصطلح أبواب للوضع والوهم والتصحيح والإدراج والاضطراب. وجود هذه الأبواب يكشف أن المشكلة كانت معروفة ومحل دراسة؛ لكن مجرد التحذير من الكذب لا يثبت أن كل خبر كاذب قد اكتشف بالفعل.

الاستنتاج «وُجد حديث مكذوب، إذن جميع الأحاديث غير موثوقة» لا يلزم منطقياً؛ فهو يعمم حكم عينة على كل المادة دون فحص. وكذلك لا يصح الرد عليه بأن كل ما حفظته الكتب صحيح. السؤال الأجدى: ما الأدوات التي استعملها النقاد للتمييز؟ وكيف طبقت على الخبر الذي بين أيدينا؟ بهذا ينتقل النقاش من التعميم إلى أدلة يمكن مقارنتها.

المراجع: 11، 12

من الذي نقل الخبر؟

ينقل مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين اهتمام العلماء بمعرفة رجال الإسناد. وهذا كلام تابعي، لا حديث نبوي. والإسناد يتيح أن يتحول خبر مجهول الطريق إلى سلسلة أشخاص يمكن بحث أزمئتهم وصلاتهم وشيوخهم وتلاميذهم. لكنه ليس زينة شكلية: كتابة أسماء ثقات في سلسلة لا تكفي إذا قام دليل على انقطاع الرواية أو وقع خطأ في تركيب الطريق.

ومن هنا جاءت تراجم الرواة والجرح والتعديل: هل الراوي صادق؟ هل كان يضبط ما يسمع؟ هل تغير حفظه؟ هل روايته من كتابه أم من حفظه؟ وهل وافق أصحاب الشيخ أم خالفهم؟ قد يكون الرجل معروفاً بالصلاح لكنه يخطئ كثيراً في النقل، فلا يجعل صلاحه وحده كل حديثه صحيحاً. فالعدالة والضبط شرطان مختلفان، ولكل منهما أثره.

المراجع: 12، 13

النص نفسه يدخل في المقارنة

لا يقف النقد عند السؤال عن أسماء الناقلين. عند جمع طرق الحديث قد يظهر أن راوياً زاد جملة لا يذكرها الأحفظ، أو وصل ما رواه غيره مرسلاً، أو رفع إلى النبي ﷺ ما يفقه غيره على صحابي. وقد تُعرف جملة أنها شرح من أحد الرواة دخلت في سياق المتن. لهذه الصور أسماء في علوم الحديث لأنها فروق حقيقية لاحظها النقاد في المادة التي جمعوها.

والمثال المجرد يوضح الفكرة: إذا اتفق أصحاب شيخ على لفظ، وانفرد واحد عنه بلفظ يغير المعنى، لا تكون زيادة الواحد مقبولة أو مردودة تلقائيًا. يبحث الناقد ضبطه، ومجالس السماع، وإمكان تعدد الرواية، وقوة الطرق الأخرى. هذا تصوير لطريقة المقارنة، وليس تخريجًا لحديث معين أو قاعدة تغني عن التفاصيل. ومن فائدته أن القارئ يرى لماذا تتجاوز الدراسة مجرد عدّ الأسانيد.

المراجع: 12

اختلاف النقاد لا يبطل علم النقد

قد يختلف عالمان في رأو أو في ترجيح طريق؛ لأن ما وصل إليهما من الشواهد يختلف، أو لأن وزن القرائن يختلف. وجود الخلاف يستدعي عرض حجج كل حكم، لا افتراض عصمة أحد الطرفين ولا إسقاط جميع عملهما. وبعض الخلاف مؤثر، فلا يُسوى بإخفائه خلف درجة مختصرة في بطاقة.

الثقة بالحديث إذن ليست تصديق كل ما يروى، بل الثقة المشروطة بما ثبت بمنهج العلماء وأدلتهم. ومثلما كانت رواية الحديث عملاً علمياً، كان بيان ما لا يصح منها عملاً علمياً أيضاً. لذلك لا تعد معرفة الأحاديث الموضوعية هدمًا للسنة؛ إنما الهدم أن تُنسب الأكاذيب إليها أو أن تُسقط رواياتها الصحيحة بسبب وجود الأكاذيب خارجها.

المراجع: 12، 13

مراجع الفصل

1. علوم الحديث — صفة من تقبل روايته ومن ترد

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثالث والعشرون، شروط الراوي، الفائدتان الثانية والثالثة، والفرق عن الشهادة

أساس التفريق بين العدالة والضبط، وطريقة اختبار الضبط بالمقارنة، وأهمية تفسير الجرح.

المرجع الأصلي

2. علوم الحديث — من خلط في آخر عمره

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثاني والستون، القاعدة الأولى ومثال عطاء بن السائب يبين أثر زمن السماع، ويقدم مثالا واقعيًا على التفريق بين مرويات الراوي قبل تغييره وبعده.

المرجع الأصلي

3. فتح المغيـب بشرح ألفية الحديث — مراتب التعديل

شمس الدين السخاوي — مراتب التعديل، الجزء الثاني، ص 113 وما بعدها في العرض
يشرح درجات عبارات النقاد وأهمية معرفة استعمالهم والقرائن بدل تسوية ألفاظهم.

المرجع الأصلي

4. صحيح مسلم — الاستئذان ثلاثاً

مسلم بن الحجاج — كتاب الآداب، الحديث 2153a، رواية أبي سعيد عن قصة أبي موسى وعمر
مثال صحيح على طلب التثبت من خبر معين بانضمام من عرفه من الصحابة.

المرجع الأصلي

5. علوم الحديث — معرفة مختلف الحديث

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع السادس والثلاثون، قسما المختلف والجمع والنسخ والترجيح أساس ترتيب النظر في الأخبار التي يبدو التعارض بين دلالاتها، مع تقديم الجمع الممكن.

المرجع الأصلي

6. صحيح مسلم — النهي عن كتابة غير القرآن

مسلم بن الحجاج — كتاب الزهد والرفائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، الحديث 3004 أحد نصي التطبيق، وجمع النهي عن الكتابة والإذن بالتحديث في الرواية نفسها.

المرجع الأصلي

7. صحيح البخاري — الكتابة لأبي شاه

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب اللقطة، الحديث 2434، خطبة فتح مكة النص المقابل في التطبيق، وفيه أمر صريح بكتابة الخطبة لرجل سمعها.

المرجع الأصلي

8. المنهاج شرح صحيح مسلم — وجوه تفسير أحاديث الكتابة

يحيى بن شرف النووي — الجزء 18، شرح الحديث 3004، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم يعرض وجوهاً تتعلق بحال الكاتب أو الصحيفة أو النسخ، فيوضح اختلاف طرائق رفع التعارض الظاهر.

المرجع الأصلي

9. علوم الحديث — العلة في اسم رِإو

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثامن عشر، تعريف المعلل ومثال يعلى بن عبيد في حديث البيعان بالخيار

مثال نقدي محدد يكشف خطأ اسم الشيخ مع كون الاسمين لثقتين وصحة أصل المتن.

المرجع الأصلي

10. صحيح البخاري — خيار المتبايعين

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب البيوع، الحديث 2112، طريق الليث عن نافع عن ابن عمر

طريق صحيح مستقل لأصل المعنى؛ يوضح الفرق بين ثبوت المتن وسلامة كل إسناد روي به.

المرجع الأصلي

11. التحذير من الكذب على النبي ﷺ

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب العلم، حديث 107

يثبت النص التحذير من تعمد الكذب، فلا تعرض السنة وكأنها تغفل خطر الوضع. ولا يستخرج من التحذير وحده إحصاء لنسبة الموضوعات أو دعوى كشفها كلها.

المرجع الأصلي

12. أسباب الطعن ومخالفة الروايات

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — نزهة النظر، أسباب الطعن في الراوي ومباحث الوهم والإدراج والمخالفة

يربط الكتاب بين أوصاف الراوي وصور الخلل في الإسناد والمتن، ويشرح مصطلحات نشأت لدراسة هذه الفروق. الملخص هنا يصف المنهج ولا يصحح حديثاً بعينه.

المرجع الأصلي

13. معرفة رجال الإسناد

محمد بن سيرين؛ رواه مسلم في المقدمة — مقدمة صحيح مسلم، أثر ابن سيرين؛ الترقيم الداخلي في المورد

26

يوضح الأثر السؤال عن ناقلي الخبر. نسبته إلى ابن سيرين مهمة: هو شاهد على ممارسة نقدية عند العلماء، وليس قولاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

المرجع الأصلي

نقرأ حديثًا كاملاً: من المصدر إلى المعنى

تجتمع أدوات القراءة في مثال واضح: تعيين النص ومصدره ومقارنة ألفاظه وفهم معناه. نقرأ التطبيقات الموجودة مع مراجعها ثم نراجع الأسئلة المصاحبة لها.

التخريج وجمع الطرق: تطبيق على حديث النيات

من العزو إلى دراسة الرواية

التخريج في هذا الدرس هو تعيين مواضع الخبر في مصادره الحديثية، مع بيان ما يحتاج إليه البحث من طرقه وألفاظه وأحكام أهل العلم عليه. فقولنا «رواه البخاري» يحدد مصدرًا، لكن تعيين الكتاب والحديث يحدد الرواية التي نتحدث عنها. وقد يكرر المصنف الحديث بألفاظ أو أسانيد مختلفة، فتكون الدقة في الموضوع جزءًا من الدقة في العزو. أما جمع الطرق فهو جمع روايات الخبر ليتبين من وافق من، وأين اجتمعت الأسانيد وأين اختلفت، وما الألفاظ المشتركة والزايدة. ويسمى تتبع الموافقات في هذا الباب اعتبارًا. ليست فائدته التقوية دائمًا؛ فقد تكشف المقارنة وهما أو تفرّدًا مؤثرا. فالجمع يقدم مادة الحكم، ولا يسبقها بحكم أن كل طريق جديد زيادة في الصحة.

المراجع: 1، 2

المصدران في المثال

ورد حديث النيات في أول صحيح البخاري، من طريق الحميدي عن سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم، عن علقمة بن وقاص، عن عمر. وورد في صحيح مسلم برقم 1907a، من طريق عبد الله بن مسلمة بن قعنب، عن مالك، عن يحيى بن سعيد، ثم

الرجال أنفسهم إلى عمر. هنا لا نكتفي بأن الكتابين أخرجوا الحديث؛ نرى كيف وصل كل مصنف إليه.

يفترق الطريقان قبل يحيى بن سعيد، ثم يجتمعان عنده: أخذ سفيان عنه، وأخذ مالك عنه. ولذلك تكون رواية مالك متابعة لسفيان عند الشيخ المشترك يحيى. لكنها لا تضيف صحابياً آخر إلى أصل الحديث، لأن الطريقين ينتهيان إلى عمر. فعدد الكتب التي تروي الخبر، وعدد الشيوخ المتابعين في طبقة، وعدد الصحابة الناقلين ثلاثة أعداد لا يصح الخلط بينها.

المراجع: 3، 4، 1

الألفاظ لا تنسب إلى موضع غيرها

في موضع البخاري الأول جاء «إنما الأعمال بالنيات»، وفي موضع مسلم المذکور «إنما الأعمال بالنية». كما تذكر رواية مسلم الهجرة إلى الله ورسوله صراحة، بينما ينتقل لفظ البخاري في هذا الموضع إلى الهجرة لدنيا أو امرأة. يشترك الخبران في أصل تعليق العمل بالقصد، مع اختلاف مقدار اللفظ المسوق وصيغته.

هذا الفرق لا يقتضي تناقض الروائتين؛ فالزيادة المذكورة لا تنفي ما في الأخرى. لكنه يمنع أن ننقل نص مسلم كاملاً ونقول إن جميع ألفاظه هي لفظ البخاري رقم 1. يمكن عزو أصل الحديث إلى الكتابين، مع بيان المصدر الذي أخذ منه النص المعروف. وتظهر هنا فائدة جمع الطرق في الشرح أيضاً؛ إذ يوضح اللفظ الأطول جزءاً لم يُسق في الموضع الأقصر.

المراجع: 3، 4

ماذا أنتجت المقارنة؟

أنتج التطبيق معرفة محددة: حديث صحيح موجود في الصحيحين، وطريقان يلتقيان عند يحيى، ومتابعة في هذه الطبقة، وفروق محفوظة في الموضعين المعينين. ولم ينتج

استيعاب جميع طرق الحديث، ولا إثبات أنه روي عن صحابين. وبهذا يصبح التخريج وصفاً أميئاً لما تبين من الأدلة، وليس قائمة طويلة من أسماء المصادر.

وتتوسع هذه المقارنة في سائر الأخبار؛ فموافقة الراوي من طريق آخر عن الصحابي نفسه تسمى متابعة في الاستعمال الشائع، وما جاء عن صحابي آخر يشهد للمعنى يسمى شاهداً، وقد تتداخل الألفاظ عند بعض المصنفين. والعبرة وراء التسمية بمعرفة مقدار استقلال الطريق ومحل موافقته. هذه هي الصلة العملية بين التخريج والاعتبار ونقد الحديث.

المراجع: 1، 3، 4

نقرأ حديثًا كاملاً: المصدر والنص والمعنى

نعرف أين نجد الحديث

سنصنع اليوم بطاقة قراءة لها ثلاث مساحات: المصدر، والنص، والشرح. هذه طريقة لترتيب تعلمنا. نكتب في مساحة المصدر: صحيح البخاري، كتاب العلم، الحديث 69. هذا عنوان المكان الذي نرجع إليه لنقرأ الرواية، وقد جمع هذا الكتاب الإمام محمد بن إسماعيل البخاري. وعندما نفتح الرابط نجد أن الصحابي أنس بن مالك نقل هذا الحديث عن النبي ﷺ، ونجد أسماء الذين نقلوه بعده.

المراجع: 5

نقرأ كلام النبي كاملاً في هذه الرواية

عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَسْرُوا وَلَا تَعْسُرُوا، وَيَسْرُوا وَلَا تَتَّقِرُوا». هذا هو الكلام النبوي كاملاً في الرواية القصيرة التي اخترناها. نقرأه مرة بهدوء، ثم نعيده مع فهم كلماته. وفي بطاقة النص ننقل هذه الكلمات كما هي؛ أما عبارتنا التي نشرح بها معناها فنضعها في مساحة الشرح. هكذا يسهل علينا أن نعرف ما قاله النبي وما تعلمناه من كلامه.

المراجع: 5

نفهم الكلمات ونجمع المعنى

«يَسْرُوا» أي سَهَّلُوا طريق الخير بالرفق والشرح المناسب. و«بَشَرُوا» أي أَخْبَرُوا بما يبعث الرجاء والسرور. وتكمل الجملتان الأخريان المعنى بالدعوة إلى ترك التعسير والتنفير. فحين نَعْلَمُ أَحَدًا، نساعد على فهم الصواب، ونشجعه على العمل به. وقد وضع البخاري الحديث في كتاب العلم، في باب يذكر مراعاة النبي للناس في تعليمهم. نتعلم منه أن الطريقة الحسنة جزء مهم من إيصال الخير للآخرين.

المراجع: 5

مشهد تعليمي متحِيل: بطاقة ليلي

أرادت ليلي أن تقرأ الحديث لأختها. أشارت أولًا إلى اسم الكتاب ورقمه، ثم قرأت الكلمات النبوية، ثم قالت: أفهم منه أن أشرح لك بلطف وأساعدك على التعلّم. وسألتها: أي كلمة تريدان أن نفهما معًا؟ كتبت أختها معنى «بَشَرُوا» بلون مختلف عن النص، ثم قرأتا البطاقة من جديد. هذه قصة متحيلة لتجربة طريقة القراءة. يمكنك صنع بطاقة مماثلة، وأن تعرضها على من يقرأ معك. بعد ذلك اختر تطبيقًا واحدًا للحديث في يومك؛ فتجمع معرفة المصدر، وأمانة النقل، وفهم المعنى، والعمل بما تعلمت.

المراجع: 5

مراجع الفصل

1. علوم الحديث — الاعتبار والمتابعات والشواهد

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الخامس عشر، طريقة الاعتبار والمتابعة التامة والقاصرة والشاهد

يفسر البحث عن موافقة الرواة ودرجاتها، ويبين اختلاف بعض استعمالات المتابعة والشاهد.

المرجع الأصلي

2. علوم الحديث — معرفة الحديث المعلل

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثامن عشر، نقل كلام الخطيب وعلي بن المديني في جمع الطرق

يبين أن جمع الروايات قد يكشف الخطأ، فلا تكون وظيفته التقوية فقط.

المرجع الأصلي

3. صحيح البخاري — حديث النيات

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب بدء الوحي، الحديث 1، طريق الحميدي عن سفيان

يمثل الطرف الأول من المقارنة، بإسناده ولفظه المحددين في هذا الموضوع.

المرجع الأصلي

4. صحيح مسلم — الأعمال بالنية

مسلم بن الحجاج — كتاب الإمارة، الحديث 1907a، طريق عبد الله بن مسلمة عن مالك

يمثل الطرف الثاني، ويكشف متابعة مالك لسفيان عند يحيى والفروق اللفظية بين الموضعين.

المرجع الأصلي

5. صحيح البخاري: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، الحديث 69؛ رواية أنس بن مالك.

تعرض الصفحة الجمل الأربع التي نقلها الدرس، وهي كامل كلام النبي في هذه الرواية، مع إسنادها عن أنس. تميز بطاقة التعلّم بين بيانات المرجع والنص والشرح، ولا تزعم أن هذه المساحات تقسيم اصطلاحي لأجزاء الحديث. معاني الكلمات شرح تعليمي، وقصة ليلي ليست من متن الرواية أو سبب ورودها.

المرجع الأصلي

خريطة كتب الحديث وكتب علومه

تختلف كتب الحديث باختلاف غرض المصنف وترتيبه. يعرف القارئ هنا الجامع والسنن والمسند والموطأ، ثم يتعرف إلى الكتب التي جمعت مسائل علم الحديث وشرحتها.

كتب الحديث وأنواعها

مكتبة واحدة وأسئلة مختلفة

تختلف كتب الحديث في طريقة جمع مادتها وترتيبها بحسب غرض المؤلف. فالجامع يقرب موضوعات الدين المتنوعة، والسنن تجمع أدلة الأحكام في أبواب، والمسند يضم مرويات الصحابي بعضها إلى بعض. ويظهر أثر هذا الاختيار منذ الفهرس؛ إذ يرشد عنوان الباب إلى الموضوع الذي تتصل به الرواية، ويعين ترتيب الكتاب على الوصول إلى الأحاديث ومقارنة ما بينها.

الجامع واسع الموضوعات؛ ففي صحيح البخاري أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والتفسير والمغازي والأدب. أما كتب السنن فتغلب عليها أبواب الأحكام، كالطهارة والصلاة والبيع. ويصرح أبو داود بأن عنايته في سننه بالأحكام، ويشرح أنه قد يختصر الحديث الطويل ليظهر موضع الفقه. وبهذا يخدم كل ترتيب غرضاً علمياً، مع اشتراك الكتب في حفظ الرواية ونسبتها إلى ناقلها.

المراجع: 1، 2

المسند يجمع حول الراوي

في المسند المرتب على الصحابة تكون نقطة البداية اسم الصحابي، فتجتمع تحت اسمه أحاديث قد تتباعد موضوعاتها: صلاة وسفر وخلق ومعاملة. هذه الهيئة نافعة لمن يريد تتبع مرويات صحابي أو مقارنة أسانيدها، بينما يقرب الترتيب على الأبواب مواد المسألة الواحدة ولو رواها صحابة متعددون. وقد وصف ابن الصلاح هذه العادة عند أصحاب المسانيد، ومنهم أحمد بن حنبل.

ولهذا لا تعني عبارة «رواه أحمد في المسند» أن الرواية صحيحة بمجرد وجودها فيه. اسم المسند هنا يصف بناء الكتاب، لا رتبة جميع أحاديثه. ويستعمل المحدثون «الحديث المسند» أيضًا في وصف الإسناد، ومن أشهر معانيه المرفوع المتصل؛ وهو استعمال آخر لا يستغني بدوره عن النظر في ضبط الرواة وسلامة الرواية.

المراجع: 3، 4

السند والمتن داخل الصفحة

تساعد الصفحة الأولى من صحيح البخاري على رؤية الفرق. يذكر البخاري الحميدي، ثم سفيان، ثم يحيى بن سعيد، ثم محمد بن إبراهيم، ثم علقمة، ثم عمر بن الخطاب؛ فهذا طريق النقل، أو السند. وبعده يأتي القول النبوي: «إنما الأعمال بالنيات»، فهذا من المتن، أي الكلام الذي انتهى إليه الإسناد. وليست أسماء الرجال جزءًا من القول النبوي، وإن كان إثبات الطريق لازمًا لمعرفة نسبته.

وقد يلتقي كتابان في هذا المتن ويختلفان في طريق الوصول إليه، أو يرويان منه قدرًا مختلفًا. لذلك لا يعد تكرار الجملة في أكثر من كتاب دليلًا وحده على تعدد مصادرها الأولى؛ فقد ترجع الكتب إلى شيخ واحد أو طريق مشترك.

المراجع: 5

الموطأ بين الرواية والفقه

ويمثل موطأ مالك وجهاً مبكراً للتصنيف على الأبواب: ففي كتاب وقوت الصلاة حديث نبوي، ثم آثار عن الصحابة، وتعليقات لمالك. يروي مثلاً حديث إدراك ركعة من الصلاة، ويعقبه بقول لابن عمر في إدراك الركعة. هذه المجاورة تبين أن الكتاب يحمل الرواية وفهم أهل العلم معاً، مع بقاء الفرق بين قائليهما.

وتتقاطع بعض خصائص هذه الأنواع؛ فيجمع الكتاب الواسع بين أبواب الأحكام وموضوعات أخرى، ويورد المصنف خبراً واحداً في أكثر من باب بحسب دلالاته. وتفسر معرفة النوع كثيراً من هيئة الصفحات: سبب اجتماع الأحاديث تحت اسم شخص، أو تفريق رواياته بين مسائل، أو مجاورة الحديث لقول فقيه يشرح وجه العمل به.

المراجع: 6

أهم كتب علوم الحديث وأئمتها

ابن الصلاح وجمع مسائل الفن

تختلف كتب علوم الحديث عن دواوين الرواية في أن موضوعها المباشر هو معرفة الحديث وطرق نقله وأحوال رجاله. ومن أهمها «معرفة أنواع علوم الحديث»، المشهور بمقدمة ابن الصلاح، لتقي الدين عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري. يروي ابن حجر أن صاحبه جمعه أثناء تدريسه بدار الحديث الأشرفية بدمشق، وأملاه شيئاً بعد شيء، مستفيداً من كتب الخطيب البغدادي وغيرها.

تظهر قيمة المقدمة في جمع مسائل كانت موزعة: الصحيح والحسن والضعيف، والاتصال والانقطاع، ومعرفة الرواة، وآداب التحمل والأداء. ثم اتجه العلماء إلى اختصارها وشرحها ونظمها ومناقشتها. ففاج الكتاب لم يكن نهاية البحث، بل صار بداية حوار تألفي واسع، يقرب فيه اللاحق عبارة السابق أو يستدرك عليه مسألة.

المراجع: 7، 8

ابن حجر: النخبة وشرحها

يشرح أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني في صدر «نزهة النظر» قصة كتابه: طلب منه بعض أصحابه تلخيص المهم من الفن، فصنف «نخبة الفكر»، ثم طلبوا شرحًا يوضح ما خفي على المبتدئ فكتب النزهة. إنها حاجة تعليمية مرت بمرحلتين: نص قصير يجمع العلاقات، وشرح يبسط أسباب التقسيم والأمثلة.

وتبدأ النخبة بأقسام الخبر بحسب طرق وصوله، ثم تنتقل إلى القبول والرد وما يتفرع عنهما. فبدل أن تكون الأسماء قائمة محفوظات منفصلة، يأخذ كل مصطلح مكانه ضمن تقسيم. وفي الشرح يفسر المؤلف عبارات متنه ويوازن الأقوال؛ ومن فائدته أن تسمع معنى العبارة من صاحبها مع حجته، لا أن تستنتج مراده من لفظ موجز وحده.

المراجع: 7، 9

السيوطي وتدريب الراوي

«تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي» لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي شرح لكتاب «التقريب والتيسير» للنووي. ويذكر السيوطي أنه كان يقيد فوائد متناثرة، ثم رأى جمعها في شرح يوضح ألفاظ التقريب ويبين ما بينه وبين أصله من زيادة أو نقص ومناقشة. يكشف هذا التصريح كيف تتحول الملاحظات المتراكمة إلى كتاب له غرض محدد.

ومن أمثلة طريقتة صدر الكتاب؛ ينقل تعريف علم الحديث عن ابن الأكفاني، ثم يشرح عناصره: حقيقة الرواية، وشروطها، وحال الرواة. يضيف الشرح هنا طبقة تفسير إلى التعريف، ويضع أقوال العلماء متجاوزة لتظهر الفروق بينها. ولهذا يفيد التدريب في تتبع النقاش وتفصيل العبارة بعد أن تكون صورة المسألة قد اتضحت.

المراجع: 10

علل الترمذي والانتقال إلى التطبيق

يحفظ «العلل الصغير» للترمذي بيانا لمصادر أقواله في الجامع، وكلاما على الرواة وصيغ الأداء ومعنى بعض مصطلحاته. ومن نصوصه شرحه أن اختلاف النقاد قد يكون من جهة الحفظ مع صدق الراوي. أما «العلل الكبير» ففيه أسئلة عن أحاديث بأعيانها، يكثر فيها الرجوع إلى محمد بن إسماعيل البخاري؛ وتكشف هذه الأسئلة عن المادة العملية وراء القواعد.

ومن ذلك سؤاله البخاري عن رواية لعائشة في قضاء الصوم، فيجيبه: «أرجو أن يكون محفوظًا». العبارة تقويم لرواية محددة، وليست تعريفًا عامًا للحديث المحفوظ. وتتكامل بذلك أغراض الكتب: جمع المسائل عند ابن الصلاح، وترتيبها وتوضيحها عند ابن حجر، وبسط مناقشاتها عند السيوطي، ورؤية السؤال النقدي في علل الترمذي.

المراجع: 11، 12

مراجع الفصل

1. صحيح البخاري: فهرس الكتب

محمد بن إسماعيل البخاري — عناوين كتب الإيمان والبيع والمغازي والتفسير والأدب

تنوع العناوين في الفهرس شاهد من بنية الكتاب على سعة موضوعات الجامع.

المرجع الأصلي

2. رسالة أبي داود إلى أهل مكة في وصف سننه

سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني — فقرنا اختصار الحديث، واقتصاره على الأحكام
يشرح المؤلف بنفسه غرضه الفقهي، وسبب حذف ما لا يحتاج إليه موضع الاستدلال من بعض
الروايات الطويلة.

المرجع الأصلي

3. معرفة أنواع علوم الحديث: النوع الثاني

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثاني، التنبيه الثامن: قول الترمذي حسن صحيح
يصف جمع مرويات كل صحابي في المسانيد، وينبه إلى أن أصحابها لم يلتزموا كون كل ما يخرجونه
صالحا للاحتجاج.

المرجع الأصلي

4. معرفة أنواع علوم الحديث: المسند

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الرابع: معرفة المسند
يعرض اختلاف استعمال المسند، ومنه الجمع بين الرفع والاتصال؛ فيوضح الفرق بين وصف الحديث
واسم النوع التأليفي.

المرجع الأصلي

5. صحيح البخاري: حديث النيات

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب بدء الوحي، الحديث 1
السند المكتوب والمتن في هذه الرواية هما المثال الفعلي للتمييز بين طريق النقل والكلام النبوي المنقول.
المرجع الأصلي

6. الموطأ: وقوت الصلاة

مالك بن أنس، رواية يحيى بن يحيى الليثي — باب جامع الوقوت؛ الروايتان 15 و16 في ترقيم الكتاب المعروف

يجاور حديث أبي هريرة المرفوع في إدراك ركعة قول ابن عمر؛ وتظهر في الكتاب نفسه تعليقات مالك، فيتضح تنوع مواد الموطأ.

المرجع الأصلي

7. نزهة النظر: مقدمة المؤلف

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — النص العربي في المقدمة، من ذكر ابن الصلاح إلى سبب تأليف النخبة وشرحها

يحكي ابن حجر جمع ابن الصلاح للمسائل بالأشرفية، ثم يبين سبب تصنيفه النخبة والنزهة وطريقة شرح المتن.

المرجع الأصلي

8. معرفة أنواع علوم الحديث

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — فهرس أنواع علوم الحديث

تبين عناوين الأنواع نطاق الكتاب من أحوال الأخبار إلى الرواة والتحمل والأداء.

المرجع الأصلي

9. نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — صدر المتن: أقسام الخبر، ثم المقبول والمردود

البناء الفعلي للنخبة يوضح وضع المصطلحات ضمن تقسيمات مترابطة.

المرجع الأصلي

10. تدريب الراوي: مقدمة المؤلف

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي — ج 1، ص 23-26، سبب التأليف وتعريف علم الحديث
يبين السيوطي علاقة شرحه بالتقريب وغرض جمع فوائده، ثم يقدم مثالا على شرح عناصر تعريف
منقول.

المرجع الأصلي

11. العلل الصغير

محمد بن عيسى الترمذي — مصادر العلل، والتضعيف من جهة الحفظ، وصيغ الأداء ومعاني الاصطلاح
نص منهجي يشرح موارد الترمذي وبعض أسباب اختلاف النقاد واستعمالاته الاصطلاحية.

المرجع الأصلي

12. العلل الكبير: سؤال عن حديث عائشة

محمد بن عيسى الترمذي، بترتيب أبي طالب القاضي — علل الترمذي الكبير، ص 127، رواية 216، في
قضاء الحائض الصيام دون الصلاة؛ جواب البخاري: أرجو أن يكون محفوظًا.
يقدم مثالا على تقويم حديث بعينه، بصيغة السؤال والجواب التي تبرز طبيعة النقد التطبيقي.

المرجع الأصلي

البخاري ومسلم: المصنفان والصحيحان

تكشف سيرة البخاري ومسلم وطريقة ترتيب كتابيهما جانباً من حياة الرواية والنقد. يقرأ هذا الفصل نماذج توضح غرض كل مصنف وطريقته في جمع الحديث.

البخاري وصحيحه

طالب يتعلم الرجوع إلى الأصل

محمد بن إسماعيل البخاري، أبو عبد الله، عالم ارتبط اسمه بكتاب، لكن طريقه إلى الكتاب بدأ بالتعلم والسؤال. ينقل الذهبي عن وراقه محمد بن أبي حاتم خبراً من صغره: سمع شيئاً يذكر أبا الزبير في إسناد عن إبراهيم، فنبه إلى أن الصواب الزبير بن عدي. راجع الشيخ أصله فصح الكتاب. قيمة المشهد ليست في الانبهار بصغر السن وحده، بل في أن الحجة حُسمت بالمراجعة.

وفي الخبر نفسه يذكر البخاري خروجه مع أمه وأخيه إلى مكة، ثم بقاءه لطلب الحديث بعد رجوعهما. وتذكر ترجمته سماعه في بخارى وبلخ وبغداد والبصرة والكوفة والحجاز ومصر والشام. الرحلة هنا اتصال بشيوخ ومواد رواية، وليست مجرد امتلاك أخبار كثيرة؛ إذ لا تظهر ثمرة الجمع إلا حين تصحبه معرفة بالفروق بين الرواة والطرق.

المراجع: 1

صحیح وجامع فی وقت واحد

اختار البخاري لصحيحه أحاديث يراها ثابتة، ولم يقصد استيعاب كل الصحيح. وينقل ابن الصلاح عنه أنه ترك أحاديث صحيحة اتقاء طول الكتاب. بذلك نفهم الانتقاء: غياب رواية عن الصحيح ليس شهادة بضعفها، كما أن ثبوت الحديث لا يجيب وحده عن جميع أسئلة الفقه التي يثيرها.

وفي الوقت نفسه لم يحصر الكتاب في العبادات؛ ففيه التفسير والمغازي والأدب والمعاملات. وتنقسم كتبه إلى أبواب تكشف عن جهة الاستدلال. قد يكون عنوان الباب مسألة دقيقة، فيأتي الخبر شاهداً لها؛ فيقرأ الطالب كلام النبي، ويرى معه اجتهاد المصنف في وضعه تحت هذا العنوان. هاتان طبقتان متصلتان، وليستا كلام متكلم واحد.

المراجع: 2، 3

خبر صغير يفتح مسألة تربوية

في كتاب العلم عقد البخاري باباً لمن جعل لأهل العلم أياً ما معلومة، وأورد خبر ابن مسعود الذي كان يذكر الناس كل خميس. طلب رجل أن يحدثهم كل يوم، فذكر ابن مسعود أنه يكره إملالهم، وأنه يتعاهدهم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتعاهد أصحابه مخافة السامة.

الخبر يحفظ أكثر من عبارة وعظية: فيه طلب المتعلم، وتقدير المعلم لطاقته، وربط الطريقة بعمل النبي. واختيار البخاري لهذا الموضوع يبرز تنظيم التعلم، لا تقليل قيمة العلم. ولا يصبح يوم الخميس بهذا الخبر موعداً لازماً لكل درس؛ فالوجه الذي يظهر من التوبيخ هو إمكان تخصيص أوقات معلومة مع مراعاة الانتفاع.

المراجع: 4

مكانة الكتاب ومعنى خدمته

يفرق ابن الصلاح بين الأحاديث المسندة التي هي أصل الصحيح وبين المعلقات والآثار الواردة في تراجم أبوابه. وتساعد هذه المعرفة على فهم الصفحة: ففيها النص المسند، وقد يسبقه أثر أو استشهاد، ولكل مادة وظيفتها وطريقة نسبتها. إن دراسة هذه الطبقات جزء من فهم البناء العلمي للصحيح.

ومعرفة البخاري حقًا لا تنتهي بإحصاء من أثني عليه. إنها تظهر حين ندرك كيف صار ما سمعه مادة منتقاة، وكيف تحولت الرواية إلى باب يتعلم منه القارئ. توقير جهده ينسجم مع فهم حجته وتمييز اجتهاده، وبذلك يكون الكتاب مصدر علم حي لا اسمًا يذكر بعيدًا عن صفحاته.

المراجع: 2، 4

مسلم وصحيحه

من نيسابور إلى مجالس السماع

اسمه مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، وفي نسبته إلى نيسابور عنوان لبداية رحلة لا لحدودها. يذكر الذهبي أن من أوائل سماعه مجلس يحيى بن يحيى، وأنه حج شابًا وسمع في مكة، ثم اتصلت رحلته إلى شيوخ العراق والحرمين ومصر. لم تكن الرحلة زينة تضاف إلى ترجمة المحدث؛ فكل مجلس يتيح سماع أصل، ومقارنة أداء شيخ بأداء آخر، ومعرفة رجال لا يكفي أن تبلغ الطالب أسماءهم.

ونتيجة هذه الخبرة ليست كتابًا يجمع كل ما سمعه صاحبه. يقرر ابن الصلاح أن البخاري ومسلمًا لم يستوعبا جميع الصحيح ولم يلتزما ذلك. فوجود الحديث في صحيح مسلم شهادة نقدية مهمة له، لكن غيابه لا يساوي الحكم بضعفه؛ لأن الاختيار والتأليف غير الإحصاء الشامل للمرويات.

المراجع: 5، 6

المقدمة تكشف غرض المصنف

تبدأ مقدمة مسلم باستجابة لسائل يريد مجموعاً من الأخبار مضبوطاً غير مثقل بكثرة التكرار. ويشرح المؤلف أن القليل الذي يحسن صاحبه فهمه أيسر نفعاً من الكثير الذي يعجز عن ضبطه. هذه عناية بالمتعلم، لكنها لا تعني حذف الفروق المؤثرة من أجل الاختصار؛ فالمعيار هو ما يضيفه الطريق إلى فهم الحديث أو نقده.

ولهذا يستثني مسلم من ترك التكرار ما يحمل زيادة معنى أو إسناداً يحتاج إلى إبرازه. ويشرح تفاوت الرواة في الحفظ والإتقان، ويضرب أمثلة للمقارنة بينهم، ويتجنب روايات المتهمين. فلا يصح اختزال مقدمته في شعار قبول كل من عرف بالصدق؛ إذ الصدق وحده لا يصف مقدار ضبط الراوي، ولا يفسر موافقته لأصحاب شيخه أو مخالفته لهم.

المراجع: 7

حديث النية في أكثر من أداء

أورد مسلم حديث عمر في النية من طريق مالك، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن إبراهيم، عن علقمة، عن عمر. ثم جمع طرقاً أخرى إلى يحيى بن سعيد، منها طريق الليث وحماد بن زيد وسفيان، وأحال إلى إسناد مالك ومعنى حديثه. بهذا التنظيم يرى القارئ أن كثرة الطرق هنا تلتقي عند مدار معروف، لا أنها أخبار مستقلة عن صحابة متعددين.

ويشير النص إلى إثبات لفظ السماع من عمر في رواية سفيان؛ وهذه الصيغة تصف العلاقة بين عمر والراوي عنه داخل السلسلة المتقدمة. يحفظ مسلم بهذا التنبيه فرقاً في أداء الإسناد، إلى جانب اتفاق الطرق على معنى المتن. فتجمع الإحالات بين الاختصار وتمكين القارئ من معرفة ما يضيفه كل طريق.

المراجع: 8، 9

كتاب يربي عين المقارن

من جمال صحيح مسلم أن القارئ قد يرى حول أصل واحد شبكة من الألفاظ والرواة. فيتعلم أن عبارة «بمثله» لا تؤدي دائماً وظيفة «بنحوه»، وأن إثبات زيادة يحتاج إلى معرفة صاحبها. وليس المقصود أن كل قارئ يستقل من فوره بالحكم على هذه الفروق، بل أن هيئة الكتاب تعرفه المادة التي يعمل فيها الناقد.

ومن ثمرات هذا البناء إمكان التمييز بين ما يرويه شيخ واحد وما يتابعه عليه غيره، وبين اللفظ المسوق كاملاً والموضع المحال عليه. هذه علاقات يحتاج إليها من يشرح الحديث أو يجمع طرقه. ولهذا اتصلت عناية العلماء بصحيح مسلم بطريقة عرضه، مثلما اتصلت بما انتقاه من الأحاديث.

المراجع: 7، 9

مراجع الفصل

1. سير أعلام النبلاء: أبو عبد الله البخاري

محمد بن أحمد الذهبي — أول الترجمة: بدء الطلب وخبر الداخلي، ثم تسمية الشيوخ؛ ج 12، ص 393-395 في الترتيب المشهور

يسند النص خبر التصحيح ورحلة مكة إلى محمد بن أبي حاتم، ويسرد مواضع سماع البخاري وشيوخه.

المرجع الأصلي

2. معرفة أنواع علوم الحديث: الحديث الصحيح

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — الفائدتان الثالثة والرابعة: أصول الصحيحين وعدم استيعاب الصحيح

يفصل بين أصول الكتاب والمعلقات، وينقل تصريح البخاري بانتقاء الصحيح مع ترك بعضه تجنباً للطول.

المرجع الأصلي

3. صحيح البخاري: ترتيب كتبه

محمد بن إسماعيل البخاري — فهرس كتب العلم والتفسير والمغازي والأدب والبيوع
العناوين تبين أن الكتاب جامع لموضوعات متنوعة، وهي مادة المصنف التي بني عليها وصف نطاقه.
المرجع الأصلي

4. صحيح البخاري: الموعظة في أيام معلومة

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أيّما معلومة، الحديث 70
يجمع الموضع بين ترجمة الباب وقصة ابن مسعود وتعليقه بطريقة النبي، فيظهر أثر التبويب في فهم
الخبر.

المرجع الأصلي

5. سير أعلام النبلاء: ترجمة مسلم

شمس الدين الذهبي — الجزء الثاني عشر، أول ترجمة مسلم بن الحجاج، خبر أوائل السماع والرحلة
يوثق بداية سماع مسلم وحجه ورحلته إلى مجالس الحرمين والعراق ومصر.

المرجع الأصلي

6. مقدمة ابن الصلاح: النوع الأول

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الأول: معرفة الصحيح، الفائدة المتعلقة بعدم استيعاب
الصحيحين

يفصل بين انتقاء الصحيح في الكتاب وبين استيعاب كل حديث صحيح، ولذلك لا يلزم من عدم التخريج
التضعيف.

المرجع الأصلي

7. صحيح مسلم: المقدمة

مسلم بن الحجاج — صدر المقدمة: غرض الاختصار، أسباب التكرار، وتفاوت النقلة
نص المؤلف في غرض جمعه وأسباب تكراره وتفاوت النقلة؛ وهو أساس تفسير اختياراته في ترتيب
الروايات.

المرجع الأصلي

8. صحيح مسلم: حديث الأعمال بالنية

مسلم بن الحجاج — كتاب الإمارة، حديث 1907، طريق مالك
يعرض الأصل الذي تحيل إليه الطرق اللاحقة، ويتيح تمييز تسلسل الإسناد من متن حديث عمر.

المرجع الأصلي

9. صحيح مسلم: الطرق المجموعة لحديث النية

مسلم بن الحجاج — كتاب الإمارة، حديث 1907، متابعة طرق يحيى بن سعيد
يجمع النص طرقتا تلتقي عند يحيى بن سعيد، وينبه إلى صيغة سماع داخل الإسناد السابق، فيظهر كيف
تحفظ الإحالة فرق الأداء.

المرجع الأصلي

السنن والجوامع: أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه

تجمع هذه الكتب الرواية بالفقه والتبويب والنظر في طرق الحديث. يوضح كل نموذج كيف يؤثر غرض المصنف في اختيار المادة وعرضها.

أبو داود وسننه

رحلة تنتهي إلى كتاب ذي غرض

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني من أصحاب الرحلات الواسعة في طلب الحديث. تذكر ترجمته عند الذهبي سماعه في البصرة، ثم رحلته إلى الشام ومصر والعراق وخراسان، واستقراره بالبصرة. وتذكر صلته العلمية بأحمد بن حنبل. تكشف هذه الأخبار بيئة تكون الكتاب: لقاء الشيوخ، وتحصيل الأسانيد، ومعرفة الفقه الذي تستخرج مسائله من الروايات.

غير أن اتساع المسموع لا يلزم منه اتساع الكتاب في كل غرض. ففي رسالته إلى أهل مكة يبين أبو داود أنه جمع في السنن أحاديث الأحكام، ولم يقصد تأليف مجموع شامل للزهد والفضائل وسائر الفنون. لذلك يغلب على ترتيب كتابه سؤال العمل: كيف يتطهر المصلي؟ وما الرواية في البيع أو القضاء أو آداب المعاملة؟

المراجع: 1، 2

الاختصار الذي يحفظ موضع الدلالة

تفسر الرسالة أمراً يراه القارئ كثيراً: قد يقتصر المصنف من الحديث الطويل على الجملة التي يحتاج إليها الباب. ليست العبرة عنده بأن يملأ الموضع بكل ما اتصل بالقصة، بل بأن يظهر الحكم المقصود ولا تضيع دلالاته وسط تفاصيل لا يتوقف عليها. وهذا يوجب التفريق بين اختصار المصنف وبين كون الرواية الأصلية لم تشتمل على غير اللفظ المثبت.

وقد يكرر الحديث إذا حمل الطريق الآخر كلمة لها فائدة. فالاختصار والتكرار ليسا نزعتين متناقضتين؛ كلاهما تابع لمقدار الدلالة. وإذا وجد القارئ رواية أطول في مصدر آخر لم يلزم أن تكون مخالفة لسنن أبي داود؛ فقد يكون كل مصنف أظهر من الخبر ما يلائم باباً مختلفاً، ويبقى جمع السياق مهماً لفهم حدود الاستدلال.

المراجع: 2

ماذا يعني سكوت أبي داود؟

يقول أبو داود إنه بين ما في كتابه من وهن شديد، ويصف ما لم يتكلم عليه بأنه صالح، مع تفاوت الأحاديث في القوة. وهذه لغة مؤلف لا يصح أن نستبدل بها تلقائياً عبارة «كل مسكوت عنه صحيح». فالصلاح هنا يحتاج إلى فهم استعماله، وإلى مراعاة تصريحاته عن المراسيل وغيرها، وليس ختمًا واحدًا يلغي الفروق.

وقد نبه الذهبي في ترجمته إلى تفاوت ما سكت عنه أبو داود. لذلك يكون تعليق المصنف مادة أساسية للحكم، لكنه لا يغني عن بقية القرائن وكلام النقاد. تتيح السنن لطالب العلم أن يرى حديثاً أصلاً في الباب، وآخر يستأنس به أو يحتاج إلى بحث، بدل أن يتوهم أن اسم المجموعة وحده رتبة لجميع أفرادها.

المراجع: 2، 1

قصة الكتابة تكشف حياة الرواية

في كتاب العلم يروي أبو داود خبر عبد الله بن عمرو: كان يكتب ما يسمع من رسول الله يريد حفظه، فاعترض عليه بعض قريش بذكر الغضب والرضا، فتوقف وسأل النبي. فجاءه الإذن: «اكتب»، مع بيان أن ما يخرج منه حق. في القصة انتقال من التلقي إلى التوثيق، ومن الإشكال إلى سؤال صاحب القول، لا إلى حذف الخبر بالظن.

والخبر شاهد واضح على حضور الكتابة في حفظ الحديث منذ العصر النبوي. فدافع عبد الله بن عمرو كان صيانة ما يسمعه، ثم جاء سؤاله ليثبت له وجه الاستمرار. واختيار أبي داود له في باب كتابة العلم يصل عنواناً نظرياً بممارسة معروفة: يتلقى الصحابي الحديث ثم يكتبه، وينقل المحدث الخبر مع طريق وصوله إليه.

المراجع: 3

الترمذي وجامعه

طالب الرحلة وصاحب الأسئلة

أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي من علماء خراسان، وتذكر ترجمته رحلته إلى العراق والحرمين، واتصاله بكبار المحدثين، ومن أبرزهم محمد بن إسماعيل البخاري. والأهم من رسم طريق الرحلة أن بعض ثمرتها بقي داخل الجامع نفسه: يسمي الترمذي من سأل، وينقل أجوبة نقدية، فتظهر علاقة التلميذ بشيخه في مسائل محددة لا في ثناء عام.

ومثال ذلك ما أورده عقب حديث «مفتاح الصلاة الطهور»: ينقل سماعه من محمد بن إسماعيل في الاحتجاج بحديث عبد الله بن محمد بن عقيل، ويذكر الكلام في حفظ الراوي. هنا لا يتوارى المؤلف وراء مجرد إسناد؛ بل يصحب القارئ إلى السؤال الذي دار بين النقاد: كيف يجتمع صدق الرجل مع التفاوت في حفظه؟

المراجع: 4، 5

لماذا يسمى جامعًا؟

ليس كتاب الترمذي مقصوراً على أبواب الأحكام، وإن اشتهر ضمن كتب السنن. ففيه أبواب تتصل بالتفسير والفضائل والآداب والدعوات وغيرها، ولهذا يلائم اسم الجامع اتساع مادته. ولكن تنوع الموضوعات لا يعني أن الروايات كلها في مرتبة واحدة؛ إذ تعليقات المؤلف نفسها تذكر الصحيح والحسن والغريب وتكشف مواضع الاختلاف. ومن خصائص القراءة فيه أن الحديث لا ينتهي دائماً بانتهاء المتن. فقد يعقبه بيان درجة، أو تسمية صحابي ورد عنه معنى الباب، أو تعريف راوٍ، أو نقل قول فقهي. تتجاوز هذه الطبقات ولكنها لا تندمج: قول النبي شيء، وحكم الترمذي على الخبر شيء، ونقله عن أهل العلم شيء ثالث؛ وبتميزها تتضح قيمة الكتاب.

المراجع: 6، 7

باب صغير يكشف طريقة كبيرة

في أول الجامع يورد الترمذي حديث ابن عمر: «لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول». ويثبت اختلافاً يسيراً في اللفظ بين شخذي الرواية، ثم يصف حديث ابن عمر بأنه أصح ما في الباب وأحسن، ويذكر أحاديث صحابة آخرين بعبارة «وفي الباب». ليست هذه الجملة تكررًا للنص؛ إنها إشارة إلى أن المسألة لها مادة روائية أوسع من الحديث المسوق.

ولا يلزم من الإشارة إلى تلك الأحاديث أنها جميعاً مساوية له في الصحة أو مطابقة لكل لفظ فيه. وقد يعرف الترمذي أحد الرجال المذكورين، فيعين اسم أبي المليلح في هذا الموضع. ينتفع الطالب هنا بثلاثة أشياء في مساحة واحدة: أصل الدليل، وموقعه النسبي بين روايات الباب، ومعلومة تساعد على معرفة طريق آخر.

المراجع: 7

قراءة عبارة «حسن صحيح»

تلقت عبارة «حسن صحيح» النظر لأن الطالب تعلم أن الحسن دون الصحيح في مرتبة الضبط. وقد ناقش العلماء توجيه جمع الترمذي بين الوصفين؛ ومن توجيهات ابن الصلاح أن يكون للحديث إسناده حسن وإسناده صحيح. المهم أن ينسب هذا إلى صاحبه بوصفه تفسيرا للمصطلح، لا أن يعامل كمعادلة وحيدة تحل كل استعمال دون بحث.

وتعين معرفة الطريق الذي حكم عليه المؤلف، والألفاظ المصاحبة لحكمه، على فهم مراده في كل موضع. وقد نبه ابن الصلاح أيضا إلى اختلاف بعض نسخ الجامع في عبارات الحكم. هكذا يقدم الكتاب مادة للنقد والتفسير معا؛ فالرواية تعرض لفظ الخبر، والتعقيب يكشف تقدير المصنف لموقعه بين طرق الباب وأقوال أهل العلم.

المراجع: 8

النسائي وسننه

من نسا إلى مجالس الأمصار

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي من نسا بخراسان. يذكر الذهبي أنه بدأ الطلب صغيرا، ورحل إلى قتيبة بن سعيد وأقام عنده ببغلاخ يسمع منه. ويذكر المزي سماعه في خراسان والعراق والحجاز ومصر والشام والجزيرة، ثم قدمه مصر واشتغل أهلها بالرواية عنه. هذه الصلة بين الطالب والشيخ تفسر تكرار اسم قتيبة في أسانيد السنن؛ فالاسم المتكرر أثر مجلس طويل من التعلم.

وتظهر شخصية النسائي العلمية في الجمع بين الرواية ومعرفة الرجال وفقه الحديث. له السنن الكبرى، واشتهر كتاب المجتبى المعروف بالسنن الصغرى. والعناية بعنوان الكتاب في العزو تساعد على تعيين موضع الرواية؛ فالمكتبة تحمل عملا أوسع وعملا أصغر، وليس كل إحالة إلى سنن النسائي مكتفية بنفسها لتحديد الموضع في الطبقات المختلفة.

المراجع: 9، 10

التبويب جزء من فهم الحديث

في أوائل كتاب الطهارة تتتابع أبواب السواك: عند القيام من الليل، وكيفية، واستعمال الإمام له بحضرة الناس، والترغيب فيه، واستعماله في أحوال مختلفة. المادة واحدة في ظاهرها، لكن كل عنوان يلتقط جهة خاصة. يجعل هذا التفصيل الكتاب قرئياً من مجلس فقيه يتأمل الخبر؛ فالمسألة قد تنشأ من ظرف الفعل لا من صيغة أمر صريحة.

ومن ألطف أمثله باب «هل يستاك الإمام بحضرة رعيته». يورد النسائي قصة أبي موسى حين قدم ومعه رجلان يطلبان عملاً، وكان النبي يستاك. القصة في أصل سياقها تتناول طلب الولاية، لكن أبا موسى حفظ أيضاً هيئة النبي عند استقبالهم. التقط المصنف هذا التفصيل ووضعه في باب السواك، فصارت القصة الواحدة نافعة في أكثر من موضوع.

المراجع: 11، 12

من عموم اللفظ إلى اختيار الباب

وفي باب الرخصة في السواك بالعشي للصائم أورد حديث أبي هريرة: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». لفظ الصوم لا يرد في الحديث نفسه، وإنما تظهر مناسبة الباب من عموم «كل صلاة». هكذا يرى الطالب الاستنباط في صورته العملية: نص عام، وحال خاصة أدخلها المصنف في عمومه.

وهذا الفرق بين اللفظ والتبويب يثري فهم الكتاب؛ فنص الحديث هو الرواية، والعنوان يعبر عن وجه فهم النسائي لها. ومناقشة الفقهاء لهذا الفهم تجري في باب الاستدلال، بينما ثبوت الرواية يبحث من جهة نقلها. اتصالهما هو الذي يمنح السنن قيمتها، مع بقاء وظيفة كل منهما واضحة.

المراجع: 13

عرض الاختلاف مادة للمعرفة

وقد يكون عنوان الباب نفسه متعلقًا باختلاف الروايات؛ ففي كتاب الطهارة باب للاختلاف في كيفية التيمم، تتلوه أبواب تعرض ألفاظًا أخرى. يجمع هذا العرض أمام الباحث أوصافًا تحتاج إلى موازنة سياقاتها وطرقها، فيتجاوز الكتاب جمع النتائج إلى حفظ الأدلة التي بنيت عليها.

بهذه الطريقة يجتمع في السنن السؤال الفقهي والسؤال الحديثي: ما دلالة الخبر؟ وكيف روي؟ وتفسر هذه الصفحات عناية العلماء بفقهاء النسائي ونقده؛ فطريقته ظاهرة في اختيار الموضوع وتقريب الروايات المتصلة به، كما تظهر في كلامه على الرواة والأسانيد.

المراجع: 14، 9

ابن ماجه وسننه

عالم قزوين في رحلة الطلب

أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني هو المعروف بابن ماجه. ينقل الذهبي عن الخليلي أن أباه يزيد كان يعرف بـماجِه، ويذكر له تصانيف في السنن والتاريخ والتفسير. فهو صاحب عناية بالرواية وبمعرفة الرجال والأمصار، ولم يكن علمه منحصرًا في الكتاب الذي اشتهر بين أيدي القراء.

وتذكر الترجمة رحلته إلى العراق ومكة والشام ومصر والري لكتابة الحديث، وتسمي من شيوخه أبا بكر بن أبي شيبة وهشام بن عمار ومحمد بن ربح وغيرهم. تعود هذه الأسماء في الأسانيد فتصل الترجمة بالكتاب: ما يبدو للقارئ قائمة رجال كان في حياة المصنف سمعًا ورحلة وكتابة، ثم صار مادة مرتبة ينتفع بها من لم يلق أولئك الشيوخ.

المراجع: 15

مقدمة تسبق أبواب الأحكام

تبدأ السنن بمقدمة تضم أبواباً في اتباع السنة ومكانة العلم وتبليغه، ثم تنتقل إلى الطهارة والصلاة وسائر أبواب الأحكام، وتشتمل كذلك على الأدب والدعاء والفتن والزهد. يمنح هذا الترتيب الكتاب مدخلاً يربط تفصيل العمل بأصل التلقي؛ فقبل كثرة المسائل هناك علم يسمع، وخبر ينقل، ومسؤولية في حفظه.

وتتجه أكثر الأبواب إلى موضوع محدد تقرب إليه الروايات بأسانيدھا. ويستفيد الباحث من هذه الهيئة في جمع أدلة المسألة ومقابلة ما في السنن بما في الكتب الأخرى. وقيمة الكتاب في المكتبة الحديثية متصلة أيضاً بما يحفظه من طرق وألفاظ، إذ قد يضيف طريق آخر معرفة براؤ أو بالسباق الذي جاءت فيه جملة مشهورة.

المراجع: 16

التبليغ في نص من المقدمة

في باب «من بلغ علماً» يروي ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود الدعاء لمن سمع حديثاً فبلغه، وفيه: «فرب مبلغ أحفظ من سامع». يجمع هذا النص بين حق المتلقي الأول وحق من بعده؛ فالسماع بداية انتقال العلم، وقد يأتي متلق لاحق أشد حَقّاً لما بلغه. لذلك يحتفظ النقل الأمين بفائدة تتجاوز قدرة الناقل نفسه.

ويظهر معنى الحديث في صناعة المصنفات: يحفظ ابن ماجه إسناداً ولقظاً، فيأتي بعده من يقارن هذا الطريق بغيره أو يشرح غريب المتن. وبذلك يتعاون النقل والفهم عبر الأجيال؛ فالمصنف لا يستنفد كل ما في مادته من فوائد، وإنما يقدم أصلاً علمياً يستطيع المتأخر أن يبني عليه معرفة إضافية.

المراجع: 17

مكانة الكتاب وتفاوت مروياته

يثني الذهبي على حفظ ابن ماجه وعلمه، ثم يناقش الأحاديث المنتقدة في سننه. والجمع بين الأمرين ذو دلالة: تقويم العالم غير الحكم على كل حديث في مصنفه. ففي السنن الصحيح والحسن والضعيف، وتزيد أهمية الدراسة التفصيلية في الأحاديث التي تكلم فيها النقاد.

وتظهر خدمة الكتاب في وصل طرقه بغيرها، وشرح ألفاظه، وبيان حال ما تفرد به بالنسبة إلى مجموعة أخرى من الكتب. فلفظ «الزوائد» في هذا السياق وصف لعلاقة بين مجموعتين، وليس درجة صحة. بهذا الفهم يظل ابن ماجه حاضرًا بمادة كتابه ومنهجه، وتكون عناية العلماء بنقده وجهاً من وجوه خدمته وحفظ الانتفاع به.

المراجع: 15، 16، 18

مراجع الفصل

1. سير أعلام النبلاء: أبو داود

شمس الدين الذهبي — الجزء الثالث عشر، ترجمة أبي داود: الرحلة، وصلته بأحمد، والتعقيب على ما سكت عنه

يوثق مسار الطلب، ويتضمن تنبيه الذهبي إلى أن سكوت أبي داود لا يجعل جميع المسكوت عنه في درجة واحدة.

المرجع الأصلي

2. رسالة أبي داود إلى أهل مكة في وصف سننه

سليمان بن الأشعث أبو داود — فقرات اختصار الحديث وتكراره، وبيان الوهن، وعبارة «فهو صالح»، وتخصيص الكتاب بأحاديث الأحكام

يشرح المؤلف بنفسه غرض الكتاب ومعايير العرض وعباراته النقدية؛ وعليه بني تفسير الاختصار والتحذير من تسوية «صالح» بـ«صحيح».

المرجع الأصلي

3. سنن أبي داود: كتابة عبد الله بن عمرو

سليمان بن الأشعث أبو داود — كتاب العلم، باب في كتابة العلم، حديث 3646

يوثق سؤال عبد الله بن عمرو وإذن النبي بالكتابة، ويبين دافع الحفظ وراء هذا العمل.

المرجع الأصلي

4. سير أعلام النبلاء: الترمذي

شمس الدين الذهبي — الجزء الثالث عشر، ترجمة الترمذي، خبر الرحلة والشيوخ

يوثق رحلته في خراسان والعراق والحرمين واتصاله بالبخاري.

المرجع الأصلي

5. جامع الترمذي: مفتاح الصلاة الطهور

محمد بن عيسى الترمذي — أبواب الطهارة، حديث 3، وتعقيب أبي عيسى على عبد الله بن محمد بن عقيل

يتضمن نصاً صريحاً عن سماع الترمذي من البخاري في تقويم الراوي، فيجعل الصلة العلمية مثلاً موثقاً داخل الجامع.

المرجع الأصلي

6. جامع الترمذي: فهرس الكتب

محمد بن عيسى الترمذي — أسماء الكتب، ومنها التفسير والدعوات والمناقب

تظهر عناوين مادة الجامع اتساعه وراء أحاديث الأحكام، ومنها التفسير والدعوات والمناقب.

المرجع الأصلي

7. جامع الترمذي: لا تقبل صلاة بغير طهور

محمد بن عيسى الترمذي — أبواب الطهارة، حديث 1 وتعقيبه

مثال يجمع إثبات فرق لفظي، والمفاضلة بين روايات الباب، وعبارة «وفي الباب»، والتعريف برؤو.

المرجع الأصلي

8. مقدمة ابن الصلاح: معرفة الحسن

عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح — النوع الثاني، التنبيه الثامن: قول الترمذي حسن صحيح

يعرض توجيه ابن الصلاح لجمع الحسن والصحيح باعتبار تعدد الأسانيد، وينبه إلى مسائل اصطلاح الترمذي واختلاف النسخ.

المرجع الأصلي

9. سير أعلام النبلاء: النسائي

شمس الدين الذهبي — ج 14، ترجمة النسائي، بدء الطلب وذكر مصنفاته وفقهه

يوثق رحلته إلى قتيبة وإقامته عنده، ويعرض مكانته النقدية والحديث عن السنن الكبير والمجتبى.

المرجع الأصلي

10. تهذيب الكمال: أحمد بن شعيب النسائي

يوسف بن عبد الرحمن المزي — ج 1، ترجمة أحمد بن شعيب، مواضع السماع وخبر قدوم مصر

يسمي الأقاليم التي سمع فيها النسائي، وينقل خبر ابن يونس عن قدومه مصر والكتابة عنه.

المرجع الأصلي

11. سنن النسائي: كتاب الطهارة

أحمد بن شعيب النسائي — أبواب السواك في أول كتاب الطهارة

يكشف تتابع الأبواب كيف يفرق المصنف بين وقت السواك وكيفيته وهيئة فاعله.

المرجع الأصلي

12. سنن النسائي: السواك بحضرة الرعية

أحمد بن شعيب النسائي — كتاب الطهارة، باب هل يستاك الإمام بحضرة رعيته، حديث 4

قصة أبي موسى والرجلين مثال مباشر لاستخراج دلالة من تفصيل محفوظ ضمن خبر أوسع.

المرجع الأصلي

13. سنن النسائي: السواك عند كل صلاة

أحمد بن شعيب النسائي — باب الرخصة في السواك بالعشي للصائم، حديث 7

تتضح صلة العنوان بعموم لفظ الحديث، وهي أساس الشرح المتعلق بالفرق بين الرواية والاستنباط.

المرجع الأصلي

14. سنن النسائي: الاختلاف في كيفية التيمم

أحمد بن شعيب النسائي — كتاب الطهارة، باب الاختلاف في كيفية التيمم، حديث 315 وما يليه

عنوان الباب وتسلسل روايات التيمم شاهد على إدخال اختلاف الرواية في تنظيم الكتاب.

المرجع الأصلي

15. سير أعلام النبلاء: ابن ماجه

شمس الدين الذهبي — ج 13، ص 277-280، ترجمة محمد بن يزيد القزويني

يجمع التعريف بالمؤلف وتصانيفه ورحلته وشيوخه، ثم يميز بين منزلته العلمية وتقويم الأحاديث المنتقدة في السنن.

المرجع الأصلي

16. سنن ابن ماجه: فهرس الكتب

محمد بن يزيد ابن ماجه — المقدمة ثم كتب الطهارة والأحكام والأدب والدعاء والفتن والزهد
توضح أسماء الكتب بناء السنن واتساع موضوعاتها، وتفسر موقع المقدمة قبل أبواب العمل التفصيلية.

المرجع الأصلي

17. سنن ابن ماجه: من بلغ علما

محمد بن يزيد ابن ماجه — المقدمة، باب من بلغ علما، حديث 232
النص عن ابن مسعود يربط السماع بالتبليغ واحتمال زيادة حفظ المتلقي اللاحق، وهو المثال الذي يشرح
امتداد منفعة التصنيف.

المرجع الأصلي

18. إتحاف الخيرة المهرة: مقدمة المصنف

شهاب الدين البوصيري — ج 1، ص 56-57، بيان شروط استخراج الزوائد
يبين البوصيري أن استخراج الزوائد يقوم على المقارنة بكتب معينة، وأن الزيادة قد تكون في المتن أو
في الطريق عن صحابي آخر؛ وهو أصل التمييز بين وصف الزيادة ودرجة الحديث.

المرجع الأصلي

مالك وأحمد: الموطأ والمسند

يظهر تنوع التصنيف في الموطأ والمسند: رواية وفقه وآثار في أحدهما، وترتيب على الصحابة في الآخر. تكشف الأمثلة كيف نقرأ مادة كل كتاب داخل بنيته.

مالك وموطؤه

مجالس المدينة ومدرسة مالك

مالك بن أنس الأصبحي من علماء المدينة الذين اجتمع لهم الحديث والفقه. يذكر الذهبي صلته بنافع وابن شهاب الزهري وربيعة بن أبي عبد الرحمن ويحيى بن سعيد، وهي أسماء تظهر داخل الموطأ نفسه. كانت المدينة عنده مكان عيش وتعلم، وفيها آثار الصحابة وتلاميذهم ومجالس يلتقي فيها سؤال العمل بخبر من مضى.

ويروي الذهبي عن مالك أنه سأل ربيعة ويحيى بن سعيد عن أهليته للفتوى قبل أن يتصدر لها، فأذنا له. يصور الخبر مساراً علمياً قائماً على التعلم ومعرفة الشيوخ بحال الطالب. ثم صار مالك نفسه مقصداً للطلبة القادمين من الأقاليم، فانتقل علم المدينة إليهم عن طريق مجلس يقرأ فيه الحديث ويفهم معه معناه.

المراجع: 1

الرواية والآثار واجتهاد المؤلف

في الموطأ أحاديث مرفوعة إلى النبي، وآثار عن الصحابة والتابعين، وأقوال فقهية لمالك. وقد رتبت هذه المواد على أبواب، فصار القارئ يرى الدليل المنقول وبعض الفهم والعمل

المتصلين به. والتمييز بين القائلين جزء من بنية الكتاب: «قال رسول الله» تثبت جهة، و«قال مالك» تعين اجتهاد المصنف، وما بينهما من آثار يعرف بقائله وإسناده.

ومن الأمثلة خبر صلاة عثمان الجمعة في المدينة والعصر بمل؛ يتبعه تفسير مالك بأنه بكر وأسرع السير. ثم يورد الكتاب في موضع آخر تعبيره عما أدرك عليه الناس وأهل العلم ببلده. تكشف هذه التعليقات عن فقيه يفسر الخبر ويربطه بالعمل المعروف لديه، ولذلك يحمل الموطأ تاريخاً للفهم الفقهي إلى جانب نقله للأحاديث.

المراجع: 2

حسن الخلق في مادة الموطأ

في كتاب حسن الخلق يروي مالك، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قول النبي: «ليس الشديد بالصرعة»، ثم يجعل القوة في ملك النفس عند الغضب. ينتقل الحديث بالقوة من غلبة الجسد إلى حسن التصرف في لحظة الانفعال؛ فالإنسان قد يقهر غيره وهو عاجز عن توجيه نفسه.

وفي الكتاب نفسه وصف عائشة لاختيار النبي أيسر الأمرين ما لم يكن إثمًا، وقصة الرجل الذي كان يعاتب أخاه على الحياء، فقال النبي: «دعه فإن الحياء من الإيمان». تظهر بهذه المجاورة صورة متكاملة: قوة تضبط الغضب، ويسر منضبط، وحياء له قيمة إيمانية. فالموطأ لا يعرض أحكام الأعضاء وحدها، بل يضم ما يهذب السلوك الذي تصدر عنه الأعمال.

المراجع: 3

روايات الكتاب وطبقات مادته

نقلت الموطأ جماعة من تلاميذ مالك، ويذكر الذهبي رواية أبي مصعب، بينما النص المستعمل في هذه الأمثلة من رواية يحيى بن يحيى الليثي. ذكر الرواية جزء من التعريف

بالنص، ويساعد على فهم ما يواجه القارئ من فروق في ترتيب المادة وألفاظها عند المقابلة بين النسخ.

كما تظهر داخل الكتاب صيغ متباينة: إسناد يصل إلى صحابي، أو خبر يرويه تابعي عن النبي، أو بلاغ يذكره مالك. لكل صيغة موقعها في دراسة النقل، وقد خدمت كتب الشرح هذه المادة بالوصل والمقارنة والبيان. وتبقى خصوصية الموطأ في جمعه بين الأثر والفقه؛ إذ يقرب للطالب كيف كان الحديث حاضرًا في التعليم والسؤال والحياة العلمية بالمدينة.

المراجع: 1، 3، 2

أحمد بن حنبل ومسنده

الكتب رفيقة الرحلة

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني نشأ ببغداد، وبدأ طلب الحديث في شبابه، وأكثر السماع من هشيم بن بشير، ثم اتصل بكبار الحفاظ، مثل وكيع ويحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي وعبد الرزاق. تضع هذه الأسماء أمامنا مجالس متعددة وطرائق متنوعة في حفظ الحديث وتقويم رجاله.

وفي ترجمته عند الذهبي خبر يرويه المروزي عنه: خرج مع رفيق إلى الكوفة ماشيًا، ثم بقي في بيت ومعه جراب كتبه، يضعه فوق لبنة ويتوسده. ويذكر في السياق مذكرته وكيفية بحديث الثوري. يجمع المشهد مشقة الطريق وعمل الذهن؛ فالرحلة تنتهي إلى مذاكرة ومقابلة، وتتحول الأوراق التي يحملها الطالب إلى معرفة يمكن أن يختبرها بالسؤال.

المراجع: 4، 5

الصحابي محور ترتيب المسند

يجمع المسند مرويات الصحابي في موضع، وإن تنوعت موضوعاتها، ويبدأ بمسند أبي بكر الصديق. يتيح هذا البناء أن تتقارب طرق أحاديث الصحابي الواحد، وأن يظهر نصيبه المنقول في أبواب مختلفة. أما الباحث في مسألة فقهية فقد يحتاج إلى تتبعها في مسانيد عدد من الصحابة؛ ومن هنا جاءت أهمية الفهارس والخدمات التي تقرب مادة الكتاب.

واسم «المسند» يصف هذه الهيئة التأليفية، بينما درجة كل حديث تتصل بإسناده وقرائن روايته. وينبه الذهبي عند كلامه على مصنفات أحمد إلى وجود الضعيف في المسند. فمكانة الكتاب تقوم على سعة مادته وما يحفظه من طرق وألفاظ، مع تفاوت أفرادها، لا على اشتراط أن يكون كل مروي فيه صحيحاً.

المراجع: 6، 7

أبو بكر يجمع الآية بالحديث

في أول المسند يقوم أبو بكر في الناس، فيذكر قراءتهم لقول الله: «عليكم أنفسكم»، ثم يروي عن النبي الوعيد في رؤية المنكر وترك إنكاره. جمع أبو بكر النصين ليبين أن العناية بالنفس لا تنفصل عن المسؤولية الأخلاقية التي جاءت بها السنة. وبهذا يحفظ الخبر حديثاً نبوياً، ويحفظ أيضاً مناسبة استدلال الصحابي به.

وهنا تظهر فائدة بقاء كلام الصحابي حول الحديث: لو اقتطعت الجملة النبوية وحدها لفات سياق تفسير الآية، ولو اكتفي بكلام أبي بكر لفات الأصل الذي احتج به. المسند يقدم المشهد بطبقتيه، فيرى القارئ كيف كانت السنة حاضرة في بيان القرآن وتعليم الناس، وهو معنى يتجاوز جمع الكلمات المتفرقة.

المراجع: 6

رواية الكتاب وامتداد العمل فيه

كان عبد الله بن أحمد من أهم ناقلي علم أبيه، ويذكر الذهبي أنه روى المسند عنه، وأن له زيادات فيه عن شيوخه. لذلك تحمل دراسة الكتاب سؤالاً إضافياً إلى جانب متن الحديث: من الذي رواه في هذا الموضع، أحمد أم ابنه من طريق آخر؟ تعين صيغ الأداء على تمييز طبقات النقل هذه.

كما تنقل الترجمة عن أحمد عنايته بكتابة الحديث من وجوه متعددة. وهذه الفكرة تفسر جدوى الطريق المكرر: قد يكشف لفظاً أو يفسر اسماً أو يعين على موازنة ضبط الرواة. وبذلك يبقى المسند مادة واسعة لفهم الحديث ونقده، وتتصل خدمة من جاء بعد أحمد بالأصل الذي جمعه ورواه.

المراجع: 8، 5

مراجع الفصل

1. سير أعلام النبلاء: مالك

شمس الدين الذهبي — ترجمة مالك، شيوخه وخبر سؤال ربيعة ويحيى بن سعيد، وذكر رواية أبي مصعب يوثق البيئة العلمية لمالك وخبر التأهل للفتوى، ويذكر رواية الموطأ واتصال الطلبة به.

المرجع الأصلي

2. الموطأ: وقوت الصلاة

مالك بن أنس، رواية يحيى بن يحيى الليثي — الرواية 14 وتعليق مالك، ثم تعليقه في الرواية 23 على ما أدرك عليه أهل العلم ببلده

يعرض خبر عثمان وتعقيب مالك، وصيغة نسبة العمل إلى أهل بلده؛ فتظهر طبقة الاجتهاد متميزة من طبقة الخبر.

المرجع الأصلي

3. الموطأ: كتاب حسن الخلق

مالك بن أنس، رواية يحيى بن يحيى الليثي — الروايات 2 و10 و12، مع أمثلة الإرسال والبلاغ في الكتاب تجتمع فيه أحاديث اليسر والحياء وملك النفس، كما تتضح بتنوع أسانيده الصيغ المختلفة لمادة الموطأ.

المرجع الأصلي

4. سير أعلام النبلاء: نشأة أحمد وشيوخه

شمس الدين الذهبي — ج 11، نسب أحمد ومولده ثم شيوخه

يوثق نشأته وبداية طلبه وأسماء الحفاظ الذين أخذ عنهم، وهي خلفية المادة التي جمعها في المسند.

المرجع الأصلي

5. سير أعلام النبلاء: رحلة أحمد وحفظه

شمس الدين الذهبي — ج 11، عنوان «رحلته وحفظه»، خبر المروزي عن رحلة الكوفة والمذاكرة

يروي خبر جراب الكتب ومذاكرة وكيع، وينقل عناية أحمد بكتابة الحديث من وجوه متعددة.

المرجع الأصلي

6. مسند أحمد: أول مسند أبي بكر

أحمد بن حنبل — مسند أبي بكر الصديق، حديث 1 في الترقيم المعروف

يظهر موضع الحديث ترتيب الكتاب على الصحابة، ويجمع النص بين استدلال أبي بكر بالآية والحديث الذي رواه لبيانها.

المرجع الأصلي

7. سير أعلام النبلاء: مصنفات أحمد والمسنند

شمس الدين الذهبي — ج 11، ص 327-330، التعقيب على مادة المسند وزيادات عبد الله
يبين الذهبي منزلة المسند مع وجود روايات ضعيفة فيه، ويذكر زيادات عبد الله، فيفسر الفرق بين قيمة
المجموعة ودرجة أفرادها.

المرجع الأصلي

8. سير أعلام النبلاء: عبد الله بن أحمد

شمس الدين الذهبي — ج 13، ترجمة عبد الله بن أحمد، روايته المسند وزياداته
يوثق دور عبد الله في نقل المسند وما أضافه من روايات عن شيوخه، وهو أصل التمييز بين طبقات
مادته.

المرجع الأصلي

الحديث في العبادة والحقوق والعمل

يصل الحديث النية والعمل والعبادة بحقوق الإنسان ومن حوله. يقرأ هذا الفصل نصوفاً في الصلاة والذكر وحقوق النفس والأسرة والوالدين والأجير وأمانة الكسب.

الحديث والفقه والعبادات وفضائل الأعمال

النص والفقه والحكم ليست أسماء لشيء واحد

النص هو الكلام المنقول، والفقه هو فهم دلالاته مع الأدلة الأخرى، والحكم هو ما يبين صفة الفعل من وجوب أو استحباب أو غيرهما. هذه حلقات متصلة لكنها غير متطابقة. قد يحفظ اثنان حديثاً واحداً، ثم يختلفان في دلالة أمر فيه أو في علاقته بنص آخر، دون أن يكون أحدهما قد رفض أصل الحديث.

في باب العلل من الرسالة بشرح الشافعي أثر السؤال والسياق والعموم والخصوص في فهم السنة. ومثاله جمع نصوص الصلاة لمعرفة كيف تؤدي، لا الاكتفاء بكلمة الصلاة وحدها. فحين يقول الفقيه إن فعلاً شرط أو واجب أو سنة، يكون قد انتقل من الرواية إلى الاستدلال، وعليه أن يبين وجه هذا الانتقال وما جمعه من أدلة.

ولهذا لا يصح أن تنسب عبارة شارح إلى النبي، ولا أن تجعل اختلاف الشروح اختلافاً في ألفاظ الحديث نفسها. ولو قرأ مبتدئ ترجمة باب في كتاب حديث، فهي من عمل المصنف ما لم ينص على غير ذلك. فائدتها أنها تكشف فهمه، لكنها لا تصبح بمجرد مكانها كلاماً نبوياً، وهذا التفريق أول باب القراءة الفقهية الواعية.

المراجع: 1

النية: ما وراء الصورة الظاهرة للعمل

يفتح البخاري صحيحه بحديث عمر عن النيات. وفيه مثال الهجرة: قد يتشابه انتقال شخصين من بلد إلى بلد، لكن وجهة القصد تختلف؛ أحدهما يقصد الله ورسوله، والآخر يقصد منفعة دنيوية أو زوًا. فالتشابه في الحركة الظاهرة لا يجعل المعنى التعبدية والأجر واحدًا، لأن الإنسان يعمل بجسده وقصده معًا.

يساعد هذا المثال على فهم باطن العبادة. فقد يتصدق شخص طلبًا لرضا الله، ويقصد آخر أن يمدحه الناس. يعرف كل واحد منهما ما يريد من عمله، ويعلمه الحديث أن قصده جزء من مسؤوليته. والنية هي ما يتجه إليه فعله حقيقة؛ لذلك قد تكون الصدقة خفية عن الناس، عزيزة عند صاحبها لما يرجوه بها من رضا الله.

ولا تجعل النية الحسنة كل وسيلة مباحة أو كل صورة عبادة صحيحة. فالرجل الذي يريد الصلاة يحتاج إلى قصد العبادة وإلى تعلم صفتها أيضًا. حديث النيات يشرح جانب القصد، ولا يلغي بقية الأدلة المتعلقة بالفعل نفسه. هذا الربط يمنع الفصل بين الإخلاص والمتابعة: ليس أحدهما بديلًا يبرر الاستغناء عن الآخر.

المراجع: 2، 3

الصلاة تعليم بالمشاهدة وتصحيح بالفعل

صحب مالك بن الحويرث وأصحابه النبي ﷺ، ثم أمرهم أن يرجعوا إلى أهلهم ويعلموهم ويصلوا كما رأوه يصلي. تظهر في الخبر طريقة انتقال العبادة: مشاهدة، ثم حفظ، ثم تعليم. لم تكن الصلاة وصفًا غامضًا يبتكره كل جيل من جديد، ولا مجرد عدد من الحركات منفصلًا عن القراءة والذكر والطمأنينة.

ويحفظ البخاري قصة الرجل الذي صلى، ثم قال له النبي أن يرجع فيصلي لأنه لم يصل. ولما طلب التعليم، شرح له القيام والقراءة والركوع والاعتدال والسجود مع الطمأنينة.

المثال يصور الفرق بين أن يشاهد المرء شكل الصلاة وبين أن يؤديها أداء يتعلم معناه وصفته؛ فالتصحيح كان تعلُّماً لما نقص، لا استهزاء بمن لم يحسن.

ومن جمع هذه النصوص نشأ بحث الفقهاء في شروط الصلاة وأركانها وواجباتها ومستحباتها، مع اختلاف تفصيل اصطلاحاتهم واستدلالاتهم. يشرح حديث مالك طريقة التفكي والتعلیم، وتفصل قصة الرجل جانب الطمأنينة، وتضيف روايات أخرى القراءة والأذكار والهيئات. تتكامل الصورة بجمعها، فيتعلم القارئ كيف تخدم الروايات المتعددة معرفة عبادة واحدة، وكيف يرتب الفقه معانيها ليقربها إلى المتعلم.

المراجع: 3، 4

الفريضة والتطوع: مراتب العمل

يروى طلحة بن عبيد الله أن رجلاً سأل النبي ﷺ عما فرض الله عليه، فذكر له الصلوات الخمس، وسأله الرجل هل عليه غيرها، فبين له التطوع. وفي الخبر أيضاً الصيام والزكاة. هذا الحوار يجعل الفرق بين الفرض والزيادة التطوعية مفهوماً من سؤال إنسان يريد أن يعرف ما يلزمه، لا من تعريف اصطلاحي مجرد.

المثال الأقرب أن الظهر من الصلوات المفروضة، بينما الصلاة الزائدة التي ثبت مشروعيتهما ليست كلها في رتبتهما نفسها. فذكر فضل عظيم لعمل لا يكفي وحده لجعله فرضاً على كل مسلم. كما أن تسميته تطوعاً لا تعني أنه بلا قيمة؛ إنما تبين مرتبته، حتى يعرف القارئ الفرق بين ما يطالب بأدائه وما يفتح له باب الزيادة.

ويعين هذا الفرق على ترتيب الحياة التعبدية. تبدأ العناية بأداء الفريضة، ثم يأتي التطوع باباً للمزيد من القرب والخير. ويتعلم المرء أن قيمة العبادة تعرف بدليلها ومقصدها، وأن القدرة والأعذار لها مواضعها في الفقه. كان سؤال الرجل عن الواجب نقطة بداية واضحة، ثم جاء ذكر التطوع ليفتح أمامه باب الزيادة بعد معرفة ما فرض عليه.

المراجع: 5

الذكر القليل اللفظ الواسع المعنى

في صحيح البخاري حديث يصف كلمتين بخفتها على اللسان وثقلها في الميزان ومحبة الرحمن لهما: «سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». يجتمع في الذكر تنزيه الله عن النقص، والثناء عليه، وتعظيمه. ليست سهولة النطق قليلاً من المعنى؛ بل يفتح الحديث باب عبادة يستطيع الإنسان أن يصحبها في يومه.

هذا نموذج لفصائل الأعمال المبنية على خبر ثابت: النص يذكر الذكر وفضله، فيتعلمه القارئ بلفظه ويفهم ما يقول. أما أن يضاف إلى هذا الخبر عدد مخصوص أو وقت لازم أو وعد بربح دنيوي، فهذه دعاوى أخرى لا توجد في هذا الموضع. الفرق واضح بين العمل بالمذكور وبين تحميل الحديث تفاصيل لم ينقلها.

ويصحب فهم الذكر صاحبه إلى يومه. فالتسبيح ينزه الله، والحمد يستحضر نعمته، والتعظيم يذكر بجلاله. كلما تأمل الإنسان هذه المعاني صار نطقه أقدر على إيقاظ قلبه، وصار تذكره لنعمة الله باعثاً على شكره. ومن هنا تتصل الأذكار بمعرفة الله التي سبق شرحها؛ كلمات قليلة تحمل معاني واسعة يمكن أن تتجدد في قلب قائلها كل مرة.

المراجع: 6

ماذا عن الضعيف في فضائل الأعمال؟

ورد للعلماء خلاف وتفصيل في رواية الضعيف والعمل به في الفضائل. فلا يستقيم قول إنهم أجازوا كل خبر مؤثر، ولا اختصار مواقفهم في حكم واحد بلا نسبة. يعرض عبد المحسن الزامل قول المجيزين وشروطاً منها ألا يكون الضعف شديداً، وأن يدخل العمل تحت أصل ثابت، وألا يعتقد العامل ثبوت نسبته إلى النبي.

وفي جواب ابن باز بيان أن الاختصار على الصحيح في الترغيب والترهيب أولى، مع تفصيله فيما ذكره العلماء من غير شديد الضعف. يتبين للقارئ أن بين الأقوال درجات من

التوسع والاحتياط. والذكر السابق مثال ميسر: فضله ثابت في الصحيح، ويمكن للمتعلم أن يحفظه ويعمل به وهو يعرف مصدره، ويصل العبادة التي يؤديها بالدليل الذي تعلمها منه.

والفرق بين الترغيب في عمل له أصل ثابت وإنشاء عبادة جديدة يفسر أهمية شروط المجيزين. كما أن الضعيف غير الموضوع؛ فالثاني مكذوب، أما الأول فتفاوت أسباب عدم ثبوته. ومعرفة هذه المراتب عمل يدرس فيه أهل الحديث الرواة والطرق. يستفيد المتعلم من أحكامهم كما يستفيد من الشروح، ويكون اتصاله بالمثال الصحيح بداية ميسرة لفهم هذا الباب.

المراجع: 7، 8، 6

عبادة تعرف حق النفس والأسرة

يروى أنس خبر ثلاثة سألوا عن عبادة النبي، فكانهم تقالوها، وقال أحدهم إنه يصلي الليل دائماً، وآخر يصوم ولا يفطر، وثالث يعتزل الزواج. فبين لهم الرسول أنه يصلي وينام، ويصوم ويفطر، ويتزوج. المثال يكشف خطأ اتخاذ الزيادة المستمرة في المشقة معياراً يعلو على هدي النبي نفسه.

يبين الموقف أن حسن الطاعة مرتبط بالاتباع والفهم. فالإنسان له بدن يحتاج إلى الراحة، وله أهل وعلاقات ومسؤوليات، ويتسع الهدي النبوي لهذه الجوانب جميعاً. يعرف من القصة أن النوم في موضعه والأسرة في موضعها يصحبان العبادة في حياة واحدة. وبهذا تلتقي الصلاة والصيام مع أبواب الحقوق التي تثم مناقشتها في هذا الفصل.

تتكامل الآن حلقات القراءة: نص ثابت، ومعنى يفهم، وحكم يستدل له، وعمل يقصد به وجه الله. تعلمنا النيات قصد العمل، والصلاة صفة أدائه، والفريضة والتطوع مرتبته، والذكر ما يوقظ القلب فيه. بهذه الصلوات يرى القارئ الفقه خدمة للامتثال، ويرى فضائل الأعمال باعثاً على الخير، ويعرف مكان كل دليل في العبادة التي يتعلمها.

المراجع: 9، 2، 1

الحديث والحقوق والعمل

العبادة ومسؤولية الإنسان عن حقوق غيره

كان معاذ رديف النبي ﷺ حين سألته عن حق الله على عباده. وجاء الجواب بتوحيده وعبادته؛ فتبدأ الحقوق من حق الله على عباده: أن يعبدوه ويوحده، فهو الذي خلقهم ورزقهم. وفي الحديث نفسه بشاره، مع تنبيهه إلى خطر الاتكال عليها وترك العمل. يجتمع الرجاء والمسؤولية في تعليم واحد يشعر فيه المتعلم بقرب معلمه وعنايته.

وحق الله يتصل بما أمر به من العدل بين الناس. في صحيح مسلم يسأل النبي أصحابه عن المفلس، فيذكرون من لا مال له، ثم يصور شخصاً يأتي بعبادات وقد اعتدى على الآخرين في أعراضهم وأموالهم وأبدانهم. تستوفى مظالمهم من حسناته، فيكتشف السامع أن حساب الحقوق أوسع من حساب ما يملكه المرء في الدنيا.

هذا المثال يجعل أثر العبادة حاضرًا في المعاملة. فالصلاة والصوم أعمال عظيمة، وحفظ أموال الناس وكرامتهم مسؤولية عظيمة كذلك. من يؤدي موظفًا أو قريبًا لا تزول مظلمته لمجرد ظهور صلاحه في جانب آخر. وللمعنى وجه مطمئن أيضًا: حق الضعيف معلوم عند الله، والقدرة على إسكات شكواه في الدنيا لا تحول الظلم إلى عدل.

المراجع: 10، 11

بر الوالدين: صحبة قبل أن يكون عنواناً

سأل رجل النبي ﷺ عن هو أحق الناس بحسن صحبته، فذكر الأم ثلاث مرات ثم الأب. تحمل كلمة الصحبة معنى يتجاوز هدية في مناسبة: قريبًا، وحسن استماع، وصبرًا على الحاجة، ومشاركة في شؤون الحياة. والتكرار يلفت إلى منزلة الأم، مع بقاء حق الأب داخل الجواب نفسه.

قد تظهر هذه الصحبة في مشهد صغير: ابن يسمع حديث أمه حتى تتمه، أو يساعد أباه في أمر ثقل عليه. هذه صور نفهمها من حسن الصحبة، وتتغير تفاصيلها باختلاف حاجة الوالدين وقدرة الولد. يجمعها انتقال البر من شعور باطني بالمحبة إلى معاملة يذوق القريب أثرها في وقته وصحته ووجدته.

ويجمع القرآن في سورة لقمان بين الثبات على التوحيد ومصاحبة الوالدين بالمعروف، حتى إذا دعوا إلى الشرك. يتعلم القارئ أن الاحترام لا يساوي الموافقة على كل طلب، وأن الاختلاف في الاعتقاد لا يلغي أصل حسن المعاملة. بذلك تتسع صورة البر: قلب رحيم، ولسان كريم، وفعل نافع، مع وفاء الإنسان بما يؤمن به ويجب عليه.

المراجع: 12، 13

النفس والأسرة لهما نصيب من الوقت

زار سلمان أبا الدرداء، فرأى من حاله شدة الاشتغال بالصيام والقيام، وأثر ذلك في حياته الأسرية. فحثه على الطعام والراحة، ثم قاما آخر الليل يصليان. وفي ختام الموقف ذكره بحق ربه ونفسه وأهله، وبلغ الخبر النبي ﷺ فقال إن سلمان صدق. هكذا حفظت الرواية النصيحة وموافقة الرسول عليها معاً.

المشهد يشرح أن حقوق الحياة اليومية جزء من حسن التدين. فالراحة التي تعين على العمل، والوقت الذي يجد فيه الأهل صاحبهم، والطعام الذي يقيم البدن، تدخل في ترتيب المسؤوليات. لم ينه سلمان صاحبه عن الصلاة؛ بل شاركه فيها بعدما أعطى الراحة موضعها، فصار الجمع بين الحقوق أوضح من خطاب يلغي أحد جوانب الحياة.

وينتقل هذا المعنى إلى العمل أيضاً. للموظف عمل يؤديه، ولأهله صحبة، ولنفسه قدرة محدودة تحتاج رعاية. التوازن هنا عناية بحقوق حقيقية، وليس مساواة حسابية ثابتة بين الساعات. ويتعلم الإنسان من المثال أن تفوقه في باب قد يحتاج مراجعة إذا كان يقوم على إهمال أصحاب حقوق أخرى، وأن النصيحة الصادقة تساعد على رؤية الصورة كاملة.

المراجع: 14

الأجير يأخذ حَقًّا لا مَنَّة

في حديث قدسي يرويه أبو هريرة في صحيح البخاري وعيد شديد لمن استأجر أجيرًا، وأخذ منه العمل كاملاً، ثم لم يعطه أجره. يرد ذلك مع الغدر وبيع الحر وأكل ثمنه. اجتماع هذه الصور يكشف عناية النص بصيانة الإنسان من الاستغلال، ويجعل قوة صاحب العمل مرتبطة بمسؤوليته لا بحرية التصرف في حقوق العامل.

تصور عاملاً أنهى إصلاحاً متفقاً عليه، ثم حجب صاحب العمل أجره لأنه يستطيع المماطلة. يساعد الحديث على تسمية المسألة: المال المستحق مقابل العمل حق لصاحبه، لا عطية يتفضل بها المشغل إن شاء. ومن هنا يكتسب وضوح الاتفاق وحفظ ما يدل على الأداء أهمية عملية، لأنهما يساعدان على معرفة ما لكل طرف وما عليه.

قد يقع نزاع حقيقي حول مقدار العمل أو مطابقتها للاتفاق، وحينئذ تتبين الحقوق بتفاصيل العقد والبيانات والجهة المختصة. أما الصورة المذكورة في الحديث فمعينة: استيفاء العمل ثم منع أجره. يربطها النص بيوم القيامة، فيشعر القارئ أن الأمانة المهنية امتداد لإيمانه بالعدل والجزاء، حتى حين يكون الطرف الضعيف عاجزاً عن أخذ حقه فوراً.

المراجع: 15

كرامة الكسب وبذل الجهد

يروى المقدم أن النبي ﷺ أثنى على الطعام الذي يأكله الإنسان من عمل يده، وذكر أن داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده. المثال نبوي قبل أن يكون اقتصادياً: منزلة داود لم تجعله يستتفك عن الكسب، فاجتمع شرف الرسالة وشرف السعي في حياة واحدة.

يفتح الحديث عين القارئ على قيمة الجهد النافع. فالحرفة والخدمة والزراعة والصناعة صور يعتمد فيها بعض الناس على بعض، ويصير ما يبذله العامل سبباً في رزقه ورزق أسرته. وفي تقدير هذا الجهد احترام لمن يصلح الأشياء ويحمل الأعباء، ولو لم يكن عمله ظاهراً في مقدمة المشهد أو مصحوباً بمكانة اجتماعية عالية.

والكسب يتصل بالنية التي درسناها من قبل، وبالعَدل الذي يضبط طريقة العمل. قد يقصد الإنسان إعفاف نفسه والقيام على أهله وخدمة الناس، ثم يترجم قصده إلى صدق وأمانة. بهذا يلتقي العمل والعبادة في حياة المسلم. وتفصيل أحكام المهن والعقود ينظر في طبيعة كل عمل وشروطه، بينما يبرز مثال داود قيمة المشاركة الجادة في أسباب الرزق.

المراجع: 16، 17

الأمانة في السوق وفيما أوْتَمَنَّا عليه

يربط حديث حكيم بن حزام في البخاري بركة البيع بصدق المتبايعين وبيانهما، ويذكر أثر الكتمان والكذب. فالمعاملة ليست تبادل مال وسلعة فحسب؛ إنها أيضًا تبادل معلومات يثق بها الطرفان. عندما يعرف البائع عيبًا مؤثرًا، يصبح إظهاره جزءًا من فهم المشتري لما يقدم عليه، وتصبح الثقة قيمة تنشأ من فعل واضح.

ومن الأمثلة التعليمية بيع جهاز مستعمل فيه خلل يعرفه صاحبه. وصفه وصفًا أمينًا يمكن المشتري من اتخاذ قراره على بينة، أما تجميل العبارة مع إخفاء الخلل فيغير حقيقة ما يتصوره. الحديث يجعل النجاح أوسع من إتمام الصفقة؛ فبركة المعاملة مرتبطة بالصدق، وليست مجرد زيادة المبلغ الذي يحصل عليه البائع.

ويأمر القرآن بأداء الأمانات إلى أهلها والعدل في الحكم. يشمل معنى الأمانة ما أودع عند الإنسان من مال أو مسؤولية، ولذلك يلتقي حفظ أجر العامل وبيان السلعة ورعاية الأسرة في أصل جامع: إعطاء الحق لصاحبه. ومن هذه الحياة اليومية ينتقل الفصل السادس عشر إلى القصص والآخرة، ليرى كيف تحفظ الأخبار عبرة العمل وماله.

المراجع: 18، 19

مراجع الفصل

1. فهم السنة وجمع دلالاتها

محمد بن إدريس الشافعي — الرسالة، باب العلل في الحديث، الفقرات الأولى في السؤال والسياق والعموم والخصوص

يشرح المصدر كيف تتنوع دلالات النصوص باختلاف الحال، فتتضح المسافة بين حفظ الرواية وبناء الحكم الفقهي.

المرجع الأصلي

2. النيات ومثال الهجرة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، الحديث 1

يعرض النص صورة عمل واحدة تتنوع مقاصد فاعليها؛ فتتضح للقارئ منزلة القصد في العبادة، إلى جانب تعلم صفة أدائها.

المرجع الأصلي

3. الصلاة كما علمها النبي

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الأذان، الحديث 631

يربط المشاهدة النبوية بتعليم الأهل؛ فيرى المتعلم كيف انتقلت الصلاة بالفعل والقول وكيف استمر تعليمها بعد رجوع الصحابة إلى أسرهم.

المرجع الأصلي

4. تعليم الرجل الطمأنينة في الصلاة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الأذان، الحديث 757

يبين تصحيح الأداء وذكر الطمأنينة في الأركان المذكورة. التفصيل الفقهي يجمع هذا النص مع غيره ولا يقتصر عليه وحده.

المرجع الأصلي

5. السؤال عن الفرائض والزيادة تطوعاً

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الإيمان، الحديث 46، رواية طلحة بن عبيد الله

السؤال عن الصلوات وما زاد عليها يوضح أصل التمييز بين الفرض والتطوع في سياق تعليمي مباشر.

المرجع الأصلي

6. كلمتان خفيفتان على اللسان

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الدعوات، الحديث 6406

دليل ثابت لفضيلة الذكر المذكور. الموضع لا يذكر عدداً مخصوصاً ولا وعداً مالياً، فلا تنسب إليه تلك الإضافات.

المرجع الأصلي

7. عرض شروط المجيزين للضعيف في الفضائل

عبد المحسن بن عبد الله الزامل — اللقاء المفتوح، حكم العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، الفقرات التي تعدد الشروط الثلاثة

يشرح شروط القول المجيز وصلته بعمل ذي أصل ثابت؛ ففتضح الفكرة العلمية وراء التفريق بين الترغيب وإنشاء عبادة جديدة.

المرجع الأصلي

8. الاختصار على الصحيح في الترغيب والترهيب

عبد العزيز بن باز — فتاوى الدروس، حكم العمل بالحديث الضعيف في الفضائل، المادة 21323
يذكر تفصيل العلماء ويرى الاختصار على الصحيح أولى؛ وبمقارنته بعرض الشروط يفهم القارئ درجات الاحتياط والتوسع في المسألة.

المرجع الأصلي

9. الاقتداء بالهدي النبوي في العبادة والحياة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب النكاح، الحديث 5063

خير الثلاثة يرد تصور أن دوام المشقة أو ترك الحياة الأسرية أكمل من هدي النبي، ويمهد لبحث الحقوق والمسؤوليات.

المرجع الأصلي

10. تعليم معاذ حق الله على العباد

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، الحديث 2856

يجمع الحوار أصل التوحيد والبشارة والتنبيه إلى الاتكال؛ ومنه تبدأ صلة الحقوق بالعبادة والمسؤولية.

المرجع الأصلي

11. المفلس وحقوق من اعتدى عليهم

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، الحديث 2581

يحول مثال الإفلاس من نقص المال إلى تبعة الاعتداء على الآخرين، فيشرح أثر الحقوق في الجزاء الأخرى.

المرجع الأصلي

12. الأم والأب وحسن الصحبة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الأدب، الحديث 5971

سؤال الرجل وجواب النبي يقدمان البر بوصفه حسن صحبة، مع تأكيد منزلة الأم وذكر حق الأب.

المرجع الأصلي

13. صحبة الوالدين بالمعروف مع الثبات على التوحيد

القرآن الكريم — سورة لقمان، الآية 15

تجمع الآية الامتناع عن طاعة الوالدين في الشرك ومعاملتهم بالمعروف؛ فتشرح الفرق بين المخالفة والإساءة.

المرجع الأصلي

14. سلمان وأبو الدرداء وجمع الحقوق

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الصوم، الحديث 1968

يحفظ الخبر نصيحة سلمان وموافقة النبي عليها. الموقف يشرح مكان حق النفس والأهل في حياة العابد.

المرجع الأصلي

15. الوعيد في منع أجر العامل

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الإجارة، الحديث 2270

حديث قدسي يذكر من استوفى عمل الأجير ثم منعه حقه؛ الصيغة المحددة تساعد القارئ على فهم محل الوعيد ومسؤولية صاحب العمل.

المرجع الأصلي

16. عمل داود وفضل الكسب باليد

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب البيوع، الحديث 2072

يجعل الحديث حياة نبي مثالا لكرامة الجهد والكسب، فيصل المعنى الإيماني بالسعي اليومي.

المرجع الأصلي

17. القصد الذي يصحب العمل

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، الحديث 1

يربط الحديث العمل بقصد صاحبه، وهو صلة هذا الكتيب بشرح النية في كتيب الفقه والعبادات.

المرجع الأصلي

18. الصدق والبيان وبركة البيع

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب البيوع، الحديث 2079

يمكن للقارئ أن يقارن في النص بين أثر الصدق والبيان وأثر الكذب والكتمان، ويفهم المثال التطبيقي للسلعة المعيبة.

المرجع الأصلي

19. أداء الأمانة والعدل

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة النساء، الآية 58

يشرح ابن كثير عموم الأمانات، فتجتمع تحتها صور المال والمسؤولية والوفاء بالحقوق الواردة في الكتيب.

المرجع الأصلي

قصص الماضي وأخبار المستقبل والآخرة

تحمل الأخبار النبوية معاني في التوبة والعمل والاستعداد للآخرة. يقرأ هذا الفصل القصص والأخبار الموجودة في المصدر، ويفرق بينها وبين الروايات التي تحتاج إلى تثبيت مستقل.

قصة الغار: أعمال خفية ظهرت قيمتها

يروى ابن عمر أن ثلاثة ممن كانوا قبلنا دخلوا غاراً، فسدت صخرة مخرجه. توجه كل واحد إلى الله بعمل أخلص فيه: بر أحدهم والديه، وترك الثاني اعتداء كان قادراً عليه، وأدى الثالث مال أجير مع ما نما منه. وانفجرت الصخرة حتى خرجوا. تحفظ القصة مشهد الخوف وما استحضره أصحابه من صادق العمل.

في خبر الأجير ترك العامل أجره عند صاحبه، فتمّاه، ثم أعطاه إياه وما نتج عنه حين عاد. وفي خبر الآخر غلب خوف الله شهوته عندما ذكر بالحق. تفاصيل كهذه تجعل الإخلاص معنى مرئياً: يظهر حين يقدر الإنسان على أخذ ما ليس له ثم يتركه، وحين يحفظ حقاً غاب صاحبه.

تصل القصة بما تقدم عن النيات والوالدين والحقوق. فالعمل الذي كان خفياً عن الناس بقي معلوماً لله، ووجد أصحابه أثره في الشدة. هذا هو مركز الحكاية؛ وقد جاءت أعمالهم مختلفة ليجتمع البر والعفة والأمانة في معنى الصدق. والفرج المذكور حدث في هذه القصة كما رواه النبي، وليس موعداً متكرراً يحدده الناس لكل دعاء.

المراجع: 1

التوبة: الطريق يمكن أن يتغير

وفي خبر آخر من بني إسرائيل يحكي أبو سعيد الخدري عن رجل قتل تسعة وتسعين إنساناً، ثم سأل عن التوبة. أجابه راهب بأنه لا توبة له فقتله، ثم استمر يسأل حتى دُل على قرية يقصدها. خرج إليها، وأدركه الموت في الطريق، فذكر النبي ما كان من أمر الملائكة وأن الله غفر له.

تضع القصة أمام القارئ بشاعة ما صنع الرجل، ثم حقيقة توجهه إلى التغيير. لم يبق في مكانه مكتئباً بتمني نتيجة جديدة، بل خرج يقصد الطريق الذي دُل عليه، ومال بصدرة نحوه حين أدركه الموت. تظهر التوبة في السؤال والاتجاه والحركة، ويظهر الرجاء في رحمة الله مع ثقل الماضي الذي حمله صاحبها.

المغزى يحرر المخطئ من اليأس الذي يثبته على حاله، ويعلم من يجيب الناس أن القول على الله بغير علم قد يضلهم. وفي الوقت نفسه تبقى خطورة الدماء والحقوق مما علمته النصوص الأخرى. يجمع القارئ القصة مع تلك النصوص، فيرى باب الرجوع مفتوحاً، ويرى إصلاح ما أفسده الإنسان جزءاً جاداً من التغيير الذي يطلبه.

المراجع: 2، 3

خبر مستقبلي في حديث جبريل

بعد أسئلة الإسلام والإيمان والإحسان، سأل جبريل عن الساعة، فأجابه النبي بأن المسؤول عنها ليس أعلم من السائل. ثم سأل عن علاماتها، فذكر منها أن يرى الناس رعاة الشاء الفقراء يتناولون في البنيان. في مجلس واحد اجتمع الإخبار بعلامة والوقوف عند حد العلم بوقت الساعة، فكل سؤال جوابه.

التناول في البنيان يصور تناقساً على ارتفاعه وعظمته، في سياق تغير حال من كانوا أهل فقر ورعي. هذا هو المثال الذي يقدمه النص. أما تعيين مبنى أو دولة أو سنة بعينها

بوصفها المقصودة، فدعوى زائدة تحتاج دليلاً؛ تشابه صورة نراها مع وصف عام لا يمنحنا معرفة وقت النهاية أو تفاصيل الغيب.

وجود العلامات ضمن حديث تعليم الدين يربطها بالإيمان والعمل. يتعلم المسلم أن الدنيا متغيرة وأن لها نهاية، فيقابل قوتها وزينتها بوعي لا بالغفلة. والقرآن يقرر أن علم الساعة عند الله. بذلك يبقى للخبر معناه الذي يوقظ القلب، ويبقى الإنسان مسؤولاً عن يومه الحاضر بدل أن يستبدل العمل بانشغال لا ينتهي بالتوقعات.

المراجع: 4، 5

من سؤال الموعد إلى الاستعداد

سأل رجل النبي ﷺ: متى الساعة؟ فكان من جوابه سؤاله عما أعد لها. ذكر الرجل محبته لله ورسوله، فبشره النبي بأنه مع من أحب. ويروي أنس فرح الصحابة بهذا الجواب، ويذكر رجاءه أن يكون مع النبي وأبي بكر وعمر لمحبتهم لهم، وإن لم يبلغ مثل أعمالهم.

يتحول السؤال هنا من تاريخ مجهول إلى علاقة وعمل يمكن للإنسان أن يبدأ بهما. والمحبة في هذا السياق تعلق بمن يهتدي المرء به ويرجو صحبته. يأنس القارئ بأن باب الخير ليس محصوراً فيمن بلغ أعلى مراتب الأعمال، ويجد في محبة الصالحين باعثاً على الاقتراب من هديهم وتعلم ما أحبوا من الخير.

وبهذا التوجيه تتوازن أخبار الآخرة بين الخوف والرجاء. قد يوقظ ذكر النهاية الإنسان من تسويف طويل، وتفتح البشارة قلبه للأمل. كلا المعنيين يصحب صاحبه إلى الصلاة والمعاملة والتوبة. ويتضح وجه الصلة بالكتيبات السابقة: الاستعداد ليس موضوعاً بعيداً عنها، بل هو ما تكتسبه تلك الأعمال من مقصد حين يعرف الإنسان إلى أين يمضي.

المراجع: 6

الحشر: وقوف الإنسان بعد انقضاء الدنيا

تروي عائشة أن النبي ﷺ أخبر بأن الناس يحشرون حفاة عراة غرلاً؛ أي غير مختونين. فسألت عن نظر الرجال والنساء بعضهم إلى بعض، فبين أن شدة الموقف تشغلهم عن ذلك. يحفظ الحديث خبر الحشر وسؤالاً طبيعياً عن معناه، ويبين كيف يجيب التعليم النبوي عما قد يخطر في ذهن السامع.

الحشر اجتماع الناس بعد بعثهم، وفي هذا المشهد تظهر مفارقة الحياة الدنيا: يخرج الإنسان من اعتماد اعتاده على اللباس والمال والمكانة إلى موقف آخر. وتلفت إجابة النبي إلى أن أحوال الآخرة لها شدتها التي لا تقاس بمجرد ما يألّفه الناس في مجالسهم العادية. فالخبر يصف حالاً ويشرحها من داخل النص نفسه.

ومن أثر هذا الإيمان أن يرى المرء قيمة حياته في أعماق من مظهرها العابر. فالزينة نافعة في موضعها، لكنها ليست ما يحمل إليه الأمن في ذلك الموقف. يتصل الخبر بقصد العمل والعدل والتوبة، ويجعل الحياة فرصة للتهيؤ للقاء الله. والشرح النبوي لسؤال عائشة يقدم مثلاً على إمكان السؤال للتعليم مع تصديق أصل الخبر.

المراجع: 7

الحساب: العرض غير المناقشة

سمعت عائشة النبي ﷺ يذكر عذاب من نوقش الحساب، فسألته عن الآية التي تذكر الحساب اليسير. فأجاب بأن ذلك العرض. يبين السؤال والجواب أن لفظ الحساب قد يراد به عرض الأعمال، وقد يراد به استقصاؤها ومناقشة صاحبها؛ ومعرفة هذا الفرق تجمع النصين اللذين بدوا للسانه محتاجين إلى بيان.

يظهر في المثال دور السنة في شرح القرآن، وهو الدور الذي بدأنا به هذه السلسلة. فالوعد بالحساب اليسير بإق، والتحذير من المناقشة بإق، لكنهما لا يصفان صورة واحدة من كل

وجه. ينقل الحديث علماً بالغيب، ويعلم في الوقت نفسه طريقة فهم: جمع النصوص والاستماع إلى بيان الرسول لما أشكل من دلالتها.

ويعطي حديث المفلس بعداً آخر للحساب؛ إذ يحضر فيه حق من شتمهم الإنسان أو أخذ أموالهم أو آذاهم. يصبح اللسان والمال والمعاملة جزءاً من الاستعداد للآخرة. بهذا يكتمل معنى العدل والرحمة في القراءة: يرجو المؤمن فضل الله، ويستحي أن يرجو النجاة وهو يستصغر حقاً يعلم أنه تعلق بذمته لأحد من الناس.

المراجع: 8، 3

الإسرائيليات: ثلاثة أنواع من الأخبار

تسمى أخبار منقولة عن أهل الكتاب في القصص والتفسير إسرائيليّات. ورواية النبي قصة عن أمة سابقة، مثل الغار أو التوبة، ليست مجرد حكاية نقلها مفسر عن أهل الكتاب. فقصة الغار تصف أصحابها بأنهم ممن كانوا قبلنا، وقصة التوبة تذكر بني إسرائيل. طريق وصول الخبر إلينا يبين منزلته، إلى جانب مضمونه وما يشهد له.

يقسم ابن تيمية هذه الأخبار في مقدمة التفسير ثلاثة أقسام: ما شهد له ما عندنا من الوحي فيعلم صدقه، وما خالفه فيعلم بطلانه، وما سكنت عنه أدلتنا فلا يصدق ولا يكذب جزئاً. تجوز حكاية القسم الثالث على وجه الحكاية. وفي البخاري النهي عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم، وهو يحفظ هذا التوقف فيما لم يتبين أمره.

ومن المثال الذي يذكره ابن تيمية الأخبار عن لون كلب أصحاب الكهف أو نوع خشب سفينة نوح. معرفة هذه الجزئيات تختلف عن معرفة إيمان الفتية أو نجاة نوح التي يبينها الوحي. لذلك يمكن أن يفهم القارئ عظة القصة كاملة، ويبقى لون أو اسم من التفاصيل غير معلوم له؛ فدرجة المعرفة تتبع الدليل الذي وصل، لا مقدار الفضول.

المراجع: 9، 10

حكاية الخبر وفهم العبرة

ورد في البخاري الإذن بالتحديث عن بني إسرائيل، وورد فيه أيضًا النهي عن الكذب على النبي. يفهم القارئ من جمع هذا مع بيان ابن تيمية أن حكاية خبر مسكوت عنه شيء، ونسبته جزماً إلى الرسول أو بناء اعتقاد عليه شيء آخر. أما المخالف لما ثبت فتبين مخالفته، وأما الموافق فيستند تصديقه إلى الدليل الذي شهد له.

تساعد قصة أصحاب الكهف على تصور ذلك. يعرض القرآن خلافاً في عددهم، ويعلم الأدب في الحديث عما يعلم وما لا يعلم. ويشرح ابن كثير ترجيح العدد المذكور أخيراً بدلالة سياق الآية. فهذا استدلال من النص يختلف عن إضافة اسم أو لون لم يثبت؛ كل تفصيل يأخذ منزلته من حجته، وقد تتفاوت منزلة التفاصيل داخل قصة واحدة.

تجمع أخبار الماضي والمستقبل والآخره معاني هذه الكتيبات الأربعة: الإيمان بالله، وفهم الوحي، وصدق العبادة، وحفظ الحقوق، والرجاء في رحمته. نرى في الغار قيمة عمل مضى، وفي العلامة تذكيراً بتغير الدنيا، وفي الحساب مآل ما نعمل اليوم. وحين نقرأ الأخبار بهذه الصلة تتحول من معلومات بعيدة إلى فهم أعمق للزمن والمسؤولية وحياة الإنسان.

المراجع: 11، 9، 12

مراجع الفصل

1. أصحاب الغار والإخلاص في البر والعفة والأمانة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الإجارة، الحديث 2272، رواية ابن عمر

تروي هذه الطريق أعمال الثلاثة وانفراج الصخرة، ومنها حفظ مال الأجير. يستطيع القارئ وصل مشاهدتها بموضوعات النية والوالدين والعمل في الكتيبات السابقة.

المرجع الأصلي

2. توبة الرجل الذي قتل مائة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، الحديث 3470، رواية أبي سعيد الخدري
يحفظ الخبر سؤال الرجل وخروجه إلى القرية وموته في الطريق ومغفرة الله له؛ فتظهر التوبة والرجاء
في سياق قصة محددة.

المرجع الأصلي

3. حضور حقوق الناس في الحساب

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، الحديث 2581
يربط مثال المفلس العبادات بالمعاملة، ويمنح الحديث عن الجزاء صلة مباشرة بالأموال والأعراض
والأبدان.

المرجع الأصلي

4. السؤال عن الساعة وعن علاماتها

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الحديث 8a؛ آخر حوار جبريل في الساعة وأمرتها
تجاوز عدم العلم بالموعد مع ذكر تطاول رعاة الشاء في البنين يشرح الفرق بين معرفة علامة ومعرفة
وقت الساعة.

المرجع الأصلي

5. علم الساعة عند الله

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة الأعراف، الآية 187
يبين النص أن موعد الساعة من علم الله، ويصل الإخبار بالغيب بحدود ما علمه الوحي للناس.

المرجع الأصلي

6. ماذا أعددت لها؟

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، الحديث 3688

يظهر في الجواب تحويل السؤال إلى الاستعداد، وفي تعليق أنس أثر الإشارة بالصحة والمحبة في رجاء الصحابة.

المرجع الأصلي

7. الحشر وسؤال عائشة عن حال الناس

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الرقاق، الحديث 6527

يحفظ وصف الحشر مع البيان النبوي لشدة الموقف، فيستطيع القارئ فهم الخبر وسؤال عائشة والجواب متصلة.

المرجع الأصلي

8. بيان الحساب اليسير والفرق بينه وبين المناقشة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الرقاق، الحديث 6536، سؤال عائشة عن الانتشاق 8

يمثل الحديث لشرح السنة للقرآن في باب الآخرة؛ يفسر النبي الحساب اليسير بالعرض جواباً عن إشكال السائلة.

المرجع الأصلي

9. أقسام الإسرائيليات وحكاية ما سكنت عنه

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية — فصل أحسن طرق التفسير: أقسام الإسرائيليات؛ وفصل النوع الأول من الاختلاف الذي مستنده النقل فقط: أمثلة ما لا فائدة في تعيينه، ومنها خشب سفينة نوح.

يعرض التقسيم الثلاثي ويذكر أمثلة التفاصيل القصصية كلون الكلب ونوع الشجر. يشرح المرجع كيف تتفاوت منزلة المعلومات داخل باب واحد.

المرجع الأصلي

10. التوقف في الأخبار التي لم يتبين أمرها

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب التفسير، الحديث 4485؛ باب قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا يرد النهي عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم في سياق نقلهم بالعربية عن التوراة؛ وقرأ مع تقسيم ابن تيمية لمعرفة موضع التوقف.

المرجع الأصلي

11. الإذن بالحكاية والتحذير من الكذب

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، الحديث 3461
يجمع النص التبليغ والإذن بالتحديث عن بني إسرائيل والتحذير من الكذب على الرسول، فتتضح الصلة بين سعة الحكاية وأمانة النسبة.

المرجع الأصلي

12. كيف يرجح التفصيل بدلالة القرآن؟

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة الكهف، الآية 22؛ تعليق ابن كثير على الأقوال في العدد
يشرح ابن كثير ما يفيد سياق الأقوال في العدد، ويقدم مثالا على التمييز بين استدلال من النص وتفاصيل قصصية لم تقم حجتها.

المرجع الأصلي

أسئلة واعتراضات: الثبوت والفهم والنقد

بعض الأسئلة يتعلق بثبوت الخبر وبعضها بمعناه أو بمدى ما يدل عليه. يناقش هذا الفصل النقد المحدد للصحيحين والتعارض الظاهر والعقل وخبر الأحاد، بعد ما سبق من تأسيس.

هل نقد رواية في الصحيحين يعني إسقاطهما؟

التقدير العلمي والنقد يجتمعان

للصحيحين مكانة عظيمة في تلقي علماء الحديث، لكن البخاري ومسلم ليسا نبيين معصومين. وقد ناقش الحفاظ روايات وألفاظ فيهما، وأجاب آخرون عن بعض هذه المناقشات. لذلك ليس من الإنصاف أن نصف كل نقد متخصص بأنه هجوم على السنة، ولا أن نتخذ وجود النقد دليلاً على سقوط قيمة الكتابين.

يعرض ابن حجر في نزهة النظر قرائن قوة الأخبار، ويذكر تلقي العلماء للصحيحين، ثم يقيّد الكلام بما استثناه من منتقادات الحفاظ وغيرها. هذا نص من عالم يعظم الكتابين ويدرس علومهما، فلا يصح أن ننسب إلى العلماء أنهم أغلقوا كل فحص بعد التصنيف. كما أن استعمال كلمة «منتقد» لا يعني أن كل اعتراض على أي رواية صار صحيحاً بمجرد طرحه.

المراجع: 1

مثال: اليمين والشمال في إخفاء الصدقة

في حديث السبعة الذين يظلمهم الله ورد عند البخاري: «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه». وفي رواية مسلم رقم 1031a جاء ترتيب اللفظ: «حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله». هذه ليست صورة متخيلة لاختلاف الرواية؛ اللفظان موجودان في موضعيهما ويمكن للقرائ مقابلهما.

يذكر ابن حجر لفظ مسلم ضمن أمثلة القلب في المتن؛ أي انقلاب ترتيب ألفاظ على بعض ناقلي الخبر. ننقل هنا تشخيصه لهذا الاختلاف، لا نضع من أنفسنا حكماً مستقلاً في علل الرواية. والمقارنة تتعلق بهذا اللفظ، لا بإبطال أصل الحديث أو فضل إخفاء الصدقة. كما تكشف أن البحث النقدي قد يتصل بالمتن نفسه، لا بالأسماء والأسانيد وحدها.

المراجع: 2، 3، 1

لماذا لا يسقط الكتاب بسبب لفظ منتقد؟

الكتاب يضم روايات متعددة، ولكل رواية طرقها وشواهدا. فإذا وقع نقد على طريق معين، فمداه هو ما قام الدليل عليه: قد تكون الزيادة غير محفوظة، أو الوصل موضع بحث، أو لفظة مقلوبة. لا يصبح الحكم على هذه الجزئية حكماً على آلاف الروايات الأخرى التي لم تدخل في المقارنة أصلاً.

والعكس صحيح: لا يكفي اسم الصحيح لرد مناقشة مفصلة بلا نظر. الجواب العلمي يبين هل أصاب الناقد في تشخيص الفرق، وهل يوجد طريق آخر يحفظ اللفظ، وهل يغير الاعتراض أصل المعنى أم يخص صيغة نقل معينة. بهذا تبقى منزلة الكتاب قائمة على قوة عمله العلمي وتلقي أهله، لا على ادعاء أنه لا يجوز لأحد أن يلاحظ اختلافاً فيه.

المراجع: 1، 2، 3

السؤال عن الحديث ليس موقفاً واحداً

قد يسأل قارئ عن معنى لفظة استغريها، وقد يقارن باحث بين إسنادين، وقد يدعي آخر أن الكتاب مختلف كله. هذه دعاوى مختلفة تحتاج أدلة مختلفة. الجواب عن الأولى شرح للغة والسياق، وعن الثانية دراسة للرواية، وعن الثالثة فحص واسع لدعوى تاريخية لا يثبتها مثال واحد.

لهذا فالدفاع عن الصحيحين لا يحتاج إلى إخفاء تاريخ النقد، بل إلى عرضه كما هو: حفاظ يجمعون الطرق، ويرجعون بينها، ويختلفون ويجب بعضهم بعضاً. والغاية حفظ ما ثبت عن رسول الله ﷺ وتمييزه، لا تحويل أسماء المصنفين إلى بديل عن الدليل. هذا الفهم يحمي القارئ من طرفين: التشكيك الشامل الذي لا يزن الأدلة، والتعظيم الذي يُنكر مسائل درسها الأئمة أنفسهم.

المراجع: 1

لماذا تبدو بعض الأحاديث متعارضة؟

المشهد الكامل قد يغير الفهم

قد يصل إلى القارئ نهى في رواية وإذن في أخرى فيظن أنه أمام تناقض. لكن الرواية المختصرة قد تحفظ جواباً دون سؤال، أو فعلاً دون بيان حاله، أو حكماً قبل أن يتغير. لذلك يبدأ تفسير الاختلاف من معرفة ما ينقله كل نص، لا من افتراض أنهما يتحدثان عن ظرف واحد.

شرح الشافعي في باب العلل في الحديث أثر اختلاف الأسئلة والأحوال واختصار المخبر لبعض الخبر. ومعنى ذلك أن السياق جزء من الدلالة، لا أن لكل تعارض سياقاً متخيلاً ننشئه. لا يصح اختراع سبب ورود لم يثبت، أو نسبة حديث إلى زمن معين لمجرد أن ذلك يسهل الجمع بينه وبين غيره.

المراجع: 4

مثال فيه الترتيب الزمني داخل النص

روى مسلم عن بريدة أن النبي ﷺ قال: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها». يحمل النص نفسه خبر النهي السابق والإذن اللاحق، ولذلك لا يتناول الحكمان الوقت نفسه. فإذا نقل قارئ النهي وحده ونقل آخر الإذن وحده، بدا الكلام متعارضاً، بينما العبارة الكاملة تصرح بعلاقة السابق باللاحق.

يسمى رفع الحكم المتقدم بدليل شرعي متأخر نسخاً. وفي هذا المثال لا يحتاج ترتيب الحكمين إلى تخمين، لأن النص صرح به. لكن ثبوت النسخ هنا لا يجعل كل نهى وإذن في موضوع آخر ناسخاً ومنسوخاً تلقائياً؛ لا بد من معرفة التقدم والتأخر وتعذر حمل النصين على حالين مختلفتين حيث يصح ذلك. والمثال يشرح أصل الفكرة دون التوسع في فروع الزيارة التي لها أدلتها وبحوثها الخاصة.

المراجع: 4، 5

اختلاف الظروف ليس نسخاً

من الصور الأخرى أن يتعلق خطاب بحال، وخطاب آخر بحال مختلفة. فالأمر يتغير وصفه بتغير المخاطب أو قدرته أو سبب الفعل. وعند ثبوت هذا الفرق لا نحتاج إلى إلغاء أحد النصين أو القول إنهما وقعا في زمنين متعارضين. وقد جمع الشافعي بين النظر في عموم اللفظ وخصوصه وبين السؤال الذي ورد عليه الجواب.

ومع ذلك فالجمع ليس لعبة لغوية تحتمل أي معنى. التفسير المقبول يراعي العربية، وما ثبت من الروايات، والعلاقة بين النصوص. أما حمل الكلام على معنى بعيد لا يساعد عليه لفظ ولا دليل، فلا يصبح قوياً لمجرد أنه يزيل الإشكال في الظاهر. ولهذا توجد مناقشات بين الشراح في وجوه الجمع، وقد يكون بعضها أقوى من بعض.

المراجع: 4

وقد يكون الخلل في نقل إحدى الروايتين

ليس كل ما نسب إلى النبي ﷺ ثابتاً على درجة واحدة. فإذا خالفت رواية معلولة رواية محفوظة، فإن المقارنة النقدية قد تبين أن المشكلة في نسبة اللفظ الأول أصلاً. يذكر الشافعي الترجيح بثبوت الخبر والدلائل المؤيدة له، فلا يسوي بين خبرين متفاوتين في القوة ثم يبحث عن جمع متكلف بينهما.

وقد يبقى للباحث إشكال لم يصل إلى حله. حينها يكون التوقف المحدد أصدق من قول لا دليل عليه، ولا يلزم منه الحكم بأن جميع السنة متناقضة. القضية الواحدة تُبحث بنصوصها وقرائنها. وما يعرضه هذا المقال هو تفسير قابل للفهم في مثال الزيارة، وبيان لأهم مسالك الدراسة؛ لا شهادة بأننا استوعبنا جميع أمثلة مختلف الحديث أو حسمنا كل خلاف فيها.

المراجع: 4، 5

هل يتعارض الحديث مع العقل؟ وكيف يدرسه غير المسلم؟

أي عقل وأي دلالة؟

قد تعني عبارة «هذا يخالف العقل» استحالة منطقية، وقد تعني أن الأمر غير مألوف، أو أن تفسيراً معيَّناً للنص يبدو غير مقنع. هذه معانٍ مختلفة. عدم اعتياد شيء لا يجعله متناقضاً في ذاته، كما أن وصف دليل بأنه ديني لا يعفي من فهم ما يدل عليه فعلاً. كثير من النقاش يختلط عندما تستعمل العبارة نفسها لمعانٍ متباعدة.

يقرر ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل أن النظر يكون في قوة الدليلين ودلالتهما، لا بمجرد تسمية أحدهما عقلياً والآخر نقلياً. فقد يكون الاستدلال المنسوب إلى العقل ظنيّاً، وقد

يكون فهم الإنسان للنص هو موضع الخطأ. هذا تقريره في المسألة، ونستفيد منه ضرورة فحص الحجة المحددة؛ لا نجعله برهاناً جاهزاً على صحة كل تفسير معاصر لحديث.

المراجع: 6

مثال: خبرة الزراعة والتبليغ عن الله

في قصة تأبير النخل يروي مسلم كلاماً يتعلق بظن في نفع ممارسة زراعية، ثم يروي تمييز النبي ﷺ بين هذا الظن وبين ما يحدث به عن الله. وفي رواية أخرى: «أنتم أعلم بأمر دنياكم». يوضح جمع الروايين أن الكلام جاء في خبرة زراعية بعينها، لا في إلغاء هديه في المعاملات أو الأخلاق.

تساعد القصة على فهم أن النصوص نفسها تراعي اختلاف نوع الكلام: تبليغ وتشريع، أو رأي في ممارسة تجريبية. فلا تحمل كل خبرة بشرية على أنها حكم تعدي، ولا تتخذ القصة ذريعة لإسقاط أحكام الدين المتعلقة بحياة الناس. وهذه الدقة أقرب إلى فهم السنة من تسوية كل ما يتعلق بالدنيا في باب واحد.

المراجع: 7، 8

الحديث والعلوم التجريبية

إذا تعلق الاعتراض بدعوى طبية أو فلكية، فله جانبان يحتاجان بحثاً: النص المنسوب إلى النبي ﷺ من حيث ثبوته ودلالته، والنتيجة العلمية من حيث مصدرها وطريقة إثباتها ومدى تعميمها. لا يكفي مقال وعظي لإثبات علاج، كما لا تكفي ترجمة مبتورة للحديث للحكم على ما قاله الرسول.

ولا يلزم أن يكون كل حديث وصفة طبية أو تفسيراً لقانون طبيعي. وقد يحمل مدافع متحمس عبارةً معنى علمياً لا يدل عليه سياقها، ثم يظن أن تغير النظرية يطعن في الحديث؛ بينما الادعاء الزائد كان من تفسيره. هذا المقال لا يثبت تجربة مخبرية ولا يحسم

مثلاً طبيًا؛ إنما يوضح لماذا يحتاج كل مثال إلى أدلته الدينية والعلمية المحددة، وما الفرق بين النص وتأويله الحديث.

المراجع: 6، 7

سؤال غير المسلم له نقطة بدء مختلفة

نؤمن أن محمدًا ﷺ رسول الله وأن القرآن كلام الله. لكن من يسأل عن دليل الرسالة لا يكفي أن يقال له إن الخبر ملزم لأنه صادر عن رسول يؤمن به المسلمون؛ فهو يسأل عن هذه المقدمة أصلًا. لذلك يختلف شرح الاعتقاد الإسلامي عن الاستدلال لإثباته، ويختلف السؤال عن صدق الرسالة عن السؤال عن صحة خبر تاريخي معين.

يمكن للقارئ غير المسلم أن يدرس مصادر السيرة والحديث وطرق انتقال الأخبار وتعدد الشواهد ونقدها، ثم يناقش دلالتها. وعندما نذكر رواية عن صحيفة مبكرة نعرفها بوصفها خبرًا مسندًا في مصدر، لا مخطوطًا معاصرًا فحصناه. ونص القرآن في الدعوة بالحكمة والمجادلة والتي هي أحسن يوجه أسلوب الحوار؛ لكنه لا يحل بذاته جميع أسئلة الإثبات التاريخي.

الجواب المنصف لا يساوي السؤال بالعداء، ولا يصف كل غير مسلم بأنه مكذب معاند. يعرض الدليل ويشرح ما يثبته، ويعترف بما يحتاج إلى بحث أوسع. وبذلك تظل هوية الكتاب الإسلامية واضحة، ويبقى باب التعرف والفهم مفتوحًا لمن يبدأ من خارج هذه المعرفة أو يراجع سؤالًا أشكل عليه.

المراجع: 6، 9

هل أخبار الأحاد ظن لا يُعمل به؟

الأحاد لا يعني رواية شخص واحد دائماً

يُسمى الخبر متواتراً عندما يبلغ نقله شروطاً تفيد العلم من جهة الكثرة التي يمتنع معها التواطؤ على الكذب عادة، ويُسمى أحاداً إذا لم يستوف تلك الشروط. لذلك قد يروي خبر الأحاد أكثر من شخص، وقد تكون له طرق متعددة، مع بقاءه دون التواتر. فكلمة أحاد لا تساوي فرداً واحداً في جميع طبقات السند.

وعدد الطرق لا يجيب وحده عن سؤال الصحة. ففي أخبار الأحاد الصحيح والحسن والضعيف، بحسب حال الرواة واتصال السند وسلامة النقل من الشذوذ والعلة. ولا يصير الخبر صحيحاً لمجرد تكرر إسناده إذا كانت طرقه شديدة الضعف أو راجعة إلى الخطأ نفسه. لهذا فصلت كتب المصطلح بين تقسيم الخبر بحسب عدد طرقه وتقسيمه بحسب قبوله.

المراجع: 10، 11

لماذا يحتج العلماء بخبر الثقة؟

يبحث الشافعي في الرسالة «الحجة في تثبيت خبر الواحد»، ويعرض انتقال الأحكام والتعليم بواسطة المبلغ الثقة. ليست الفكرة تصديق كل خبر فردي، بل قبول نقل استوفى أوصافاً معتبرة في صاحبه وطريقه. فالاعتماد على النقل لا ينفصل عن معرفة من نقله وكيف تلقاه وما قد يعارضه.

ومن الأمثلة في صحيح البخاري خبر تحويل القبلية: جاء أهل قباء من أخبرهم بتحولها إلى الكعبة، فاستداروا وهم في الصلاة. يورده البخاري في كتاب أخبار الأحاد مثلاً على العمل بخبر بلغهم بواسطة مخبر. لا يُستنتج من الواقعة أن كل خبر مجهول المصدر ملزم؛ محل الاستدلال قبول خبر معتبر في واقعة عملية، لا إلغاء شروط الثقة والتحقق.

الظن الراجح ليس تخمينًا بلا دليل

يقرر النووي في شرحه لمسلم وجوب العمل بخبر الثقة، مع قوله إن خبر الواحد يفيد الظن لا العلم عند جمهور من ينقل مذهبهم. والظن هنا اصطلاح معرفي: ترجيح مبني على دليل مع بقاء احتمال غير مساوٍ له، وليس مجرد شعور أو إشاعة. ولهذا لا يلزم من نفي القطع نفي الحجية؛ فالسؤال عن وجوب العمل غير السؤال عن كون الدليل يقينياً من كل وجه.

ويختار ابن حجر في نزهة النظر أن بعض أخبار الأحاد قد يفيد العلم النظري إذا احتفت به القرائن. ومن القرائن التي يناقشها تلقي العلماء للخبر، وقوة طرقه، مع قيود واستثناءات يذكرها. إذن لا يصح أن تُكتب عبارة «كل أحاد لا يفيد العلم عند جميع العلماء»، ولا العبارة المقابلة «كل حديث صحيح قطعي بالإجماع». نقل الخلاف بأسماء أصحابه جزء من بيان المسألة، لا ضعف في عرضها.

أين يقع الاعتراض الحقيقي؟

إذا كان الاعتراض على رأو أو انقطاع أو علة في حديث معين، فالمناقشة تكون في هذا الموضع بالأدلة. وإذا كان الاعتراض أن كل خبر دون التواتر يجب إسقاطه، فذلك موقف آخر يمس أصل الاحتجاج بأخبار كثيرة استعملها العلماء. لا يكفي في هذه الحالة وصف الخبر بأنه أحاد؛ فهذا وصف اتفق الطرفان على تعريفه، وليس بذاته دليلاً على بطلانه.

كما أن البحث في إفادة أخبار الأحاد للعلم واتصال ذلك بأبواب الاعتقاد له تفصيل عند المدارس العلمية؛ فلا يختزل هذا الكتاب جميع ذلك في شعار. النتيجة التي يحتاجها طالب العلم هنا واضحة: عدد الطرق، ودرجة الثبوت، وحجية الدليل، ودلالته على المسألة مباحث متصلة لكنها ليست مترادفات. وبهذا يمكن فهم جواب العلماء دون خلط الصحيح بالمتواتر أو الظني بالباطل.

المراجع: 10، 11، 12

مراجع الفصل

1. قرائن الصحيحين والقلب في المتن

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — نزهة النظر، مبحث القرائن بعد الأحاد، ثم مثال القلب في المتن يذكر ابن حجر منتقادات الحفاظ عند تقييد الكلام عن الصحيحين، ويورد لفظ حديث الصدقة مثالا للقلب. المرجع يدعم إمكان النقد المحدد من داخل علم الحديث، لا دعوى إسقاط الصحيحين.

المرجع الأصلي

2. حديث السبعة: لفظ البخاري

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الأذان، حديث 660

اللفظ هنا يجعل الشمال لا تعلم ما تنفق اليمين. وهو أحد النصين اللذين تقوم عليهما المقارنة في المقال؛ لم يُدمج اللفظان في رواية واحدة.

المرجع الأصلي

3. حديث السبعة: لفظ مسلم

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث 1031a

جاء ترتيب اليمين والشمال في هذه الطريق بخلاف لفظ البخاري. حكم القلب منقول في المقال عن ابن حجر، لا مستنبط من مجرد اختلاف النصين وحده.

المرجع الأصلي

4. اختلاف الأجوبة والأحوال والروايات

محمد بن إدريس الشافعي — الرسالة، باب العلل في الحديث؛ الفقرات الأولى في اختلاف الحال واختصار الخبر والناسخ والترجيح

يفصل الشافعي أسباب ظهور الاختلاف، ويربط العمل بالنص بما يبين حاله وثبوته. هذه مسالك للاستدلال وليست أسباب ورود مخصوصة لكل حديث مجهول السياق.

المرجع الأصلي

5. النهي السابق والإذن بزيارة القبور

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب الجنائز، حديث 977a

صرح الحديث بتقديم النهي ثم الإذن. لذلك يصلح مثالا على تغير الحكم المؤرخ في النص، دون افتراض توارخ أو أحكام تفصيلية لم يدرسها المقال.

المرجع الأصلي

6. قوة الدليل العقلي والنقلي

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية — درء تعارض العقل والنقل، الجزء الأول؛ الجواب الإجمالي ثم الوجه الثاني يلخص المقال تقرير ابن تيمية في تقديم النظر في قطعية الدليل وظنيته، لا مجرد نسبته إلى العقل أو النقل. تطبيق هذا المبدأ على بحث طبي أو علمي يحتاج أدلة أخرى؛ والنسخة الإلكترونية إحالة للقراءة لا مقابلة للمخطوط.

المرجع الأصلي

7. التأبير والتمييز بين الظن والتبليغ

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث 2361

يرد في سياق زراعي، وفيه التفريق بين ظن متعلق بنفع التأبير وبين التحديث عن الله. السياق يحول دون تعميم العبارة على جميع أحكام المعاش.

المرجع الأصلي

8. أنتم أعلم بأمر دنياكم

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب الفضائل، حديث 2363

هذه صيغة أخرى لقصة التأخير. تقرأ مع الرواية السابقة لفهم سبب القول، ولا تستعمل لإلغاء تشريع المعاملات أو لإثبات دعوى طبية لم يذكرها الحديث.

المرجع الأصلي

9. الحكمة وحسن المجادلة

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة النحل، الآية 125

توجه الآية إلى الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. هي دليل على أدب عرض الحجة، لا برهان مستقل على كل دعوى تاريخية يناقشها المقال.

المرجع الأصلي

10. خبر الواحد: تعريفه وحجيته

يحيى بن شرف النووي — شرح صحيح مسلم، شرح حديث جبريل؛ مبحث «وأما خبر الواحد»، ص112
في النسخة المعروضة

يفصل النووي بين عدم استيفاء شروط التواتر وبين صحة الخبر، ويقرر العمل بخبر الثقة مع بحثه لما يفيد من علم أو ظن. المقال ينسب هذا التقرير إليه ولا يجعله الصياغة الوحيدة عند جميع العلماء.

المرجع الأصلي

11. خبر الأحاد والقرائن

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — نزهة النظر، مبحث الأحاد والخبر المحتف بالقرائن

يبين ابن حجر أن بعض أخبار الأحاد قد يفيد العلم النظري بالقرائن. هذا نص تراثي في اختلاف درجات الأدلة، لا تسوية بين كل خبر صحيح وكل خبر متواتر.

المرجع الأصلي

12. الحجة في تثبيت خبر الواحد

محمد بن إدريس الشافعي — الرسالة، باب الحجة في تثبيت خبر الواحد

يناقش الباب حجية خبر الخاصة وأدلتها، ويميز معنى الحجة فيه من الإحاطة بخبر العامة. وجه الاستفادة أن إلزام الخبر له بحث وشروط، وليس مرادفاً لكونه متواتراً.

المرجع الأصلي

13. الخبر بتحويل القبلة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب أخبار الأحاد، حديث 7251

يروى استدارة أهل قباء إلى الكعبة بعد وصول الخبر وهم يصلون. استخدمه البخاري في باب قبول خبر الصادق، فهو مثال على أثر الخبر في العمل.

المرجع الأصلي

الحديث للمبتدئ والأسرة: خمس قراءات أولى

تقرب القراءة المشتركة معاني الحديث بأمثلة يسيرة. تبدأ هذه القراءات بمعنى الحديث، ثم تصل النية والصدق والرفق والصلاة بما يراه المبتدئ في حياته.

ما الحديث؟ لقائي الأول بكلام النبي وفعله

نقترب من معنى الحديث

حين نحب شخصاً نرغب في معرفة كلامه وأعماله. ونحن نتعلم عن نبينا محمد ﷺ لنزداد محبة له ونقتدي به. والحديث هو ما نقل عن النبي من قول أو فعل أو إقرار أو صفة. والإقرار أن يعلم بشيء فيوافق عليه، والصفة وصف هيئته أو أخلاقه. سنبدأ اليوم بأمرين يسهل تمييزهما: كلام قاله، وعمل فعله وشاهده من عرفه.

المراجع: 1، 2

حديث ينقل قولاً

من كلام النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ». هذه جملة من حديث صحيح رواه عبد الله بن عمرو، وجمعه البخاري في صحيحه برقم 10. ومعناها أن المسلم يعتني بسلامة الآخرين من أذى كلامه وأفعاله. فمن تطبيقاتها أن تختار كلمة طيبة عند اللعب، وتحفظ يدك عن دفع زميلك. نقل لنا الراوي هنا كلمات قالها النبي، ولذلك فهذا مثال للحديث القولي.

المراجع: 1

وخبر ينقل فعلاً

وُسئلت عائشة رضي الله عنها عما كان النبي ﷺ يصنع في بيته، فذكرت أنه كان في خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إليها. رواه البخاري برقم 676. هنا نعرف عملاً كان يفعله النبي، حتى من غير أن تبدأ الرواية بكلمات: قال رسول الله. يخبرنا هذا المشهد الصحيح أن العناية بأهل البيت جزء جميل من هديه، وأن تقديم المساعدة ينسجم مع الاهتمام بالصلاة.

المراجع: 2

مشهد تعليمي متخيل: بطاقتان على المائدة

كتبت مريم مع أخيها بطاقتين. وضعت على الأولى كلمة «قول»، ثم قرأت الجملة التي تعلمتها عن سلامة اللسان واليد. وعلى الثانية كتبت «فعل»، وشرحت خبر خدمة النبي لأهله. وبعد الطعام حمل كل واحد طبقه إلى مكانه. قالت مريم: فهمت اليوم خبراً وحاولت العمل بمعناه. هذه قصة متخيلة للتعلّم، وليست رواية عن النبي. يمكنك صنع بطاقتين مثلها، ثم أن تشرح لأحد أفراد أسرتك ما الفرق بين نقل كلام إنسان ونقل عمل شاهدناه منه. وهكذا يصبح اسم الحديث بداية لمعنى تفهمه وعمل تحبه.

المراجع: 1، 2

النية والعمل: ما الخير الذي أقصده؟

سؤال صغير وراء العمل

قد ترى شخصين يرتبان المكان نفسه، لكن لكل واحد قصداً في قلبه. والنية هي هذا القصد: لماذا أفعل ما أفعل؟ حين تساعد أسرتك لأنك تريد برهم ورضا الله، فقد جمعت عملاً نافعاً وقصداً جميلاً. والنية شيء تعرفه في قلبك، وليست جملة طويلة تحتاج إلى حفظها. يكفي في هذه البداية أن تفهم أن العمل له صورة يراها الناس، وله قصد يعلمه الله.

المراجع: 3

كلمات نبوية نفهمها

قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى». هذا أول حديث في صحيح البخاري، رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وله تنمة تتحدث عن قصد المهاجر. و«امرئ» تعني شخصاً. يعلمنا الحديث أن للنية أثراً عظيماً في قيمة العمل وثوابه. فنتعلم اختيار الخير والعمل به ابتغاء رضا الله، ويصير السؤال عن القصد معيّنًا لنا على الإحسان في أعمالنا اليومية.

المراجع: 3

مشهد تعليمي متخيل: قبل وصول الضيوف

كانت الأسرة تستعد لاستقبال ضيوف. رأى سامي أمه تحمل أشياء كثيرة، فجمع ألعابه ورتب الوسائد ليخفف عنها. وعندما شكرته فرح بمساعدتها. في اليوم التالي رتب المكان وهي مشغولة في غرفة أخرى؛ فقد بقيت حاجتها إلى المساعدة، وبقي هو يحب أن ينفعها. هذه قصة متخيلة لتقريب المعنى، وليست حديثاً منقولاً. وهي ترينا أن قصد الخير يمكن أن يصحب عملاً بسيطاً، وأن فرصة المساعدة موجودة حتى حين لا يكون أحد مشغولاً

بمراقبتنا. وقد يختار سامي عملاً يناسب قدرته، ثم ينجزه بعناية، فيجمع صدق القصد وحسن الأداء.

المراجع: 3

خطوة أجريها اليوم

اختر عملاً نافعاً تستطيع فعله: مراجعة درسك لتتعلم وتنفع، أو حمل شيء خفيف عن أهلك، أو مساعدة زميل على فهم سؤال. استحضر قصد الخير، ثم ابدأ العمل بهدوء. وبعده صف ما أنجزت وما تعلمت. بذلك تربط الحديث بحياتك، وترجو من الله الثواب، وتتعلم أن الاهتمام بالقلب يصحب الاهتمام بطريقة العمل وإتمامه.

المراجع: 3

الصدق والأمانة: كلام يوثق به وعمل يحفظ الحقوق

الصدق يقود إلى الخير

الصدق أن تخبر بما حدث كما تعلمه، والأمانة أن تحفظ ما وضع عندك من مال أو متاع أو مسؤولية، وتؤديه كما ينبغي. قال النبي ﷺ: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ». هذه جملة من حديث في صحيح البخاري برقم 6094. والبر كلمة تجمع الخير والطاعة. فالصدق طريق نسير فيه كل يوم، حتى يصبح خلقاً نعتاده في الحديث واللعب والتعلم.

المراجع: 4، 5

الأمانة مشاركة في الخير

وفي حديث آخر وصف النبي ﷺ الخازن المسلم الأمين الذي يوصل الصدقة كاملة إلى من 'أمر بإعطائها له، وهو طيب النفس بذلك، بأنه أحد المتصدقين. رواه البخاري برقم 1438. والخازن شخص يحفظ المال ويتولى تسليمه. نرى هنا أن الخير يشمل من يقدم المال ومن يؤدي الأمانة في توصيله. وبمكنتك فهم قيمة حفظ الأمانة من كتاب تستعيده، فتحافظ عليه وتعيده إلى صاحبه في الموعد المتفق عليه.

المراجع: 5

مشهد تعليمي متخيل: صفحة انثنت

استعارت هدى كتاباً من صديقتها. وعندما أعادته لاحظت أن صفحة منه انثنت داخل حقيبتها. قالت: انثنت هذه الصفحة عندي، وأنا آسفة؛ هل نصلحها معاً؟ وافقت صديقتها، ثم وضعت الكتاب في غلاف يحميه. هذه قصة متخيلة للتعلم. ظهر الصدق في كلام هدى عما حدث، وظهرت الأمانة في اهتمامها بالكتاب وإعادته والسعي إلى إصلاحه. لم تحتج إلى أن تكون كل أعمالها بلا خطأ كي تختار الصدق؛ كانت أمامها فرصة واضحة لتتحمل مسؤوليتها وتعمل على الإصلاح. وشعرت صديقتها أنها تستطيع أن تسألها فتجد جواباً أميناً.

المراجع: 4، 5

عادة تنمو بالممارسة

ابداً بأمر قريب: حين تحكي موقفًا، فرق بين ما شاهدته وما سمعته من غيرك. وحين تستعير شيئاً، اتفق على موعد إعادته وضعه في مكان مناسب. وإذا احتجت إلى مساعدة في إصلاح خطأ، فاطلبها بصدق. هذه أعمال صغيرة تجعل الكلام أوضح والحقوق محفوظة، وتعين الأسرة والأصدقاء على التعاون والاطمئنان بعضهم إلى بعض.

المراجع: 4، 5

الرفق والرحمة: قوة تساعد وتطمئن

ما الذي يضيفه الرفق؟

الرفق أن تختار اللين وحسن التصرف في كلامك وعملك. قالت عائشة رضي الله عنها إن النبي ﷺ قال: «أَنْ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَأْنُهُ». رواه مسلم برقم 2594. ومعنى «زانه» جعله أحسن، و«شانه» عابه. فالكلمة الهادئة وحركة اليد اللطيفة تساعدان على الإصلاح، وتجعلان النصيحة أقرب إلى القلب. والرفيق يستطيع أن يوضح المطلوب ويعين على فعله بلطف.

المراجع: 6

رحمة نراها في فعل النبي

والرحمة عناية بغيرك وشعور بحاجته يحملانك على الإحسان إليه. وقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قبل الحسن بن علي، وعلم من كان حاضراً أهمية الرحمة. تجد الخير في صحيح البخاري برقم 5997. نتعرف هنا إلى رسول رحيم يظهر محبته للصغير. ومن المعاني التي نتعلمها أن الطفل يحتاج إلى عطف واهتمام، وأن التعبير اللطيف عن المحبة له مكان في حياتنا اليومية.

المراجع: 7

مشهد تعليمي متخيل: مكعبات على الأرض

بنت نورة برّجاً بالمكعبات، ثم اقترب أخوها الصغير فسقط بعضه. شعرت بالضيق، وأخذت لحظة لتهدأ. قالت له: أريد أن يبقى البرج قائماً؛ يمكنك أن تبني بجانبى بهذه القطع. جلست معه وأرته كيف يضع المكعب الكبير في الأسفل. هذه قصة متخيلة، وليست خبراً

عن النبي. الرفق ظهر في طريقة الكلام والمساعدة، والرحمة ظهرت في مراعاة صغر أخيها وحاجته إلى التعلّم. وقد حافظت نورة على رغبتها في إكمال البرج، ووجدت مع ذلك طريقة يتعاونان بها. صار الموقف فرصة يتعلم فيها الصغير، وتتعلم هي كيف تعبّر عن حاجتها بلطف.

المراجع: 6، 7

كلمة أختارها ومساعدة أقدمها

يمكنك اليوم أن تجرب الرفق حين تشرح لعبة لصديق، أو تطلب إعادة شيء استعاره منك. اختر عبارة واضحة، واستمع إلى جوابه، وقدم المساعدة التي تستطيعها. وتظهر الرحمة حين تلاحظ متعبًا فتخفف عنه، أو طفلًا يحتاج إلى شرح فتمنحه وقتًا. بهذه المواقف القريبة نفهم الحديث، ونرى أثر اللطف في التعاون والتعلّم.

المراجع: 6، 7

نتعلم الصلاة من النبي ﷺ: مشاهدة وسؤال وطمأنينة

شبان جاءوا ليتعلموا

يروى مالك بن الحويرث أن جماعة من الشبان جاؤوا إلى النبي ﷺ، فأقاموا عنده عشرين يومًا وليلة. كانوا متقاربين في السن، ووصفه مالك بأنه رحيم رقيق. وسألهم عن تركوا في أهلهم، ثم وجههم إلى الرجوع وتعليم أسرهم. هذه واقعة صحيحة في البخاري برقم 631، وليست قصة متخيلة. نرى فيها تعلّمًا يصحبه قرب ورحمة، ثم مشاركة لما تعلّموه مع أهل البيت.

المراجع: 8

وصية قصيرة وطريق واضح

ومن كلام النبي ﷺ لهم: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي». أي اقتنوا بصلاته التي شاهدتموها. نحن لم نشاهده، لكن الصحابة نقلوا لنا صفة صلاته، وتعلمها المسلمون وعلموها. لذلك نتعلم الصلاة بالاستماع إلى الشرح ومشاهدة التطبيق الصحيح، ونسأل عما نحتاج إلى فهمه. يساعدك والد أو والد أو معلم يحسن الصلاة على ربط أسماء أعمالها بما تفعله: قيام، ثم ركوع، ثم اعتدال، ثم سجود وجلوس.

المراجع: 8، 9

ماذا تعني الطمأنينة؟

وفي حديث آخر علم النبي ﷺ رجلاً الصلاة، فقال له ضمن تعليمه: «تُمْ أَرْكَعَ حَتَّى تُطْمِئِنَّ رَأْكَاعًا». رواه البخاري برقم 793. وذكر الطمأنينة أيضاً في السجود والجلوس. والطمأنينة أن يستقر الجسم في هيئة الصلاة قبل الانتقال إلى التي بعدها. نبدأ بفهم هذا المعنى عملياً: نؤدي الحركة، ونستقر فيها، ونتعلم ما يقال معها. فالصلاة عبادة نتعلم أداءها بعناية، والسؤال يعيننا على تحسينها.

المراجع: 9

مشهد تعليمي متخيل: نتعلم خطوة معاً

قال ياسر لوالده في وقت التعلّم: أريد أن أفهم الفرق بين الركوع والاعتدال بعده. أراه والده الحركتين، ثم جَرَّب ياسر أن يركع ويستقر، وأن يرفع حتى يقف معتدلاً. وصف ما فهمه بكلماته، وأعاد ما احتاج إلى تصحيح. هذا مشهد متخيل لتقريب طريقة التعلّم. يمكنك أن تختار سؤالاً صغيراً مثله، ثم تتعلم بقية صفة الصلاة مع من يعلمك، حتى تربط بين الأقوال والحركات وترتيبها. وكل مرة تفهم فيها خطوة وتؤديها بصورة أحسن تقربك من أداء هذه العبادة بعلم واهتمام.

المراجع: 8، 9

مراجع الفصل

1. صحيح البخاري: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، الحديث 10؛ رواية عبد الله بن عمرو.

تعرض الصفحة كلام النبي ﷺ بإسناده، وفيه الجملة المنقولة في الدرس، ثم جملة أخرى عن المهاجر. اقتبس الدرس الجملة الأولى وصَّرح بأنها جزء من حديث. هي مثال واضح للقول النبوي، ودليل العناية بسلامة الآخرين من اللسان واليد؛ أما بطاقتا مريم فوسيلة تعليمية مؤلفة.

المرجع الأصلي

2. صحيح البخاري: خدمة النبي ﷺ لأهله في بيته

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج، الحديث 676؛ سؤال الأسود لعائشة.

تجيب عائشة عن فعل النبي في بيته بأنه كان في مهنة أهله، وتفسر الرواية ذلك بخدمتهم، ثم تذكر خروجه للصلاة عند حضورها. هذا مثال للرواية التي تصف فعلاً نبوياً. لم تنسب المادة إليه تفاصيل حمل الصحون الواردة في المشهد المتخيل.

المرجع الأصلي

3. صحيح البخاري: إنما الأعمال بالنيات

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، الحديث 1؛ رواية عمر بن الخطاب.

يثبت النص لفظ «بالنيات» والجملة التالية «وإنما لكل امرئ ما نوى»، ثم يمثل بقصد المهاجر. نقل الدرس أول جملتين ويبين وجود التثنية. شرح النية بالقصد وتمثيلها بمساعدة الأسرة صياغة تعليمية، أما قصة سامي فمتخيلة ولا تدعي معرفة ثواب معين لشخص بعينه.

المرجع الأصلي

4. صحيح البخاري: إن الصدق يهدي إلى البر

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين وما ينهى عن الكذب، الحديث 6094؛ رواية عبد الله بن مسعود.

تبدأ الرواية بارتباط الصدق بالبر والبر بالجنة، ثم تذكر الاستمرار في الصدق وأثار الكذب. اقتبس الدرس الجملتين الأوليين كما في الرواية. الحديث أصل شرح الصدق كخلق ينمو بالممارسة؛ أما واقعة الكتاب فمثال تربوي مؤلف.

المرجع الأصلي

5. صحيح البخاري: الخازن المسلم الأمين أحد المتصدقين

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الزكاة، باب أجر الخادم إذا تصدق بأمر صاحبه غير مفسد، الحديث 1438؛ رواية أبي موسى الأشعري.

تذكر الرواية الخازن الأمين الذي ينفذ ما أمر به كاملاً، طيب النفس، إلى الشخص المقصود، وتثبت له المشاركة في أجر الصدقة. عرض الدرس معناها بوضوح دون اقتباس مبتور يترك شروط الوصف. حفظ الكتاب مثال يومي لمعنى الأمانة، وليس هو الواقعة المنقولة ولا وعداً بالأجر الخاص نفسه.

المرجع الأصلي

6. صحيح مسلم: إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه

مسلم بن الحجاج النيسابوري — كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، الحديث 2594، الرواية a؛ عن عائشة.

نقل الدرس كلام النبي كاملاً في هذه الرواية القصيرة. يربط الحديث حضور الرفق بحسن الشيء وغيابه بعيبه. شرح الكلمتين وتطبيق الرفق في طلب واضح ومساعدة لطيفة تقرب للمعنى؛ وقصة المكعبات مشهد مؤلف، وليست مناسبة ورود الحديث.

المرجع الأصلي

7. صحيح البخاري: رحمة النبي ﷺ بالحسن بن علي

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، الحديث 5997؛ رواية أبي هريرة.

تثبت الرواية تقبيل النبي ﷺ الحسن بن علي بحضور الأقرع بن حابس، ثم تعليمه أهمية الرحمة. اعتمد الدرس هذا الفعل مثالاً صحيحاً لإظهار العطف للصغير، وفصل بينه وبين قصة نورة المتخيلة.

المرجع الأصلي

8. صحيح البخاري: وصلوا كما رأيتموني أصلي

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة وكذلك بعرفة وجمع، الحديث 631؛ رواية مالك بن الحويرث.

تروي الصفحة إقامة الشبان عشرين يوماً وليلة، وتصف رحمة النبي ورفقه، وتذكر توجيههم إلى الأهل وتعليمهم. الجملة المقتبسة في الدرس جزء من توجيه أطول يتعلق بالصلاة. هي أصل التعلم من صلاته المشاهدة، ولا تعرض وحدها جميع تفاصيل صفة الصلاة.

المرجع الأصلي

9. صحيح البخاري: تعليم الصلاة والطمأنينة في أفعالها

محمد بن إسماعيل البخاري — كتاب الأذان، باب أمر النبي ﷺ الذي لا يتم ركوعه بالإعادة، الحديث 793؛ رواية أبي هريرة.

ينقل الحديث سؤال رجل أن يعلمه النبي الصلاة، ثم تعليمه التكبير والقراءة والركوع والاعتدال والسجود والجلوس. طبقت المادة جملة الطمأنينة في الركوع بالنص العربي، وشرحت استقرار البدن. التدريب مع الوالد مثال تربوي مؤلف، لا واقعة مضافة إلى الرواية.

المرجع الأصلي

بعد القراءة: طريق التعلم والرجوع إلى المصادر

جمع الكتاب معرفة الحديث ونقله وعلومه وكتبه وأثره في الحياة. ويمكن للقارئ متابعة السؤال الذي بدأ منه، والعودة إلى النصوص والمراجع التي عرفها في هذه الفصول.

علم يصل البيان بالحياة

بدأ الكتاب بالسؤال عن الحديث، وانتهى إلى عالم من النصوص والرواية والكتب والشرح. يجمع هذا العالم أصل واحد: معرفة هدي رسول الله ﷺ وما ثبت عنه. ومن أجل هذه المعرفة حفظ الرواة ما سمعوا، وصنف العلماء الكتب، وقارن النقاد الطرق والألفاظ، وشرح الفقهاء والمحدثون ما تحمله الأخبار من المعاني. ليست هذه جهودًا متنافسة؛ فجمع النص وحفظه وتمييز صحيحه وفهمه أعمال يكمل بعضها بعضًا.

تظهر ثمرة ذلك في الحياة اليومية. فالنية تعطي العمل معناه، والصدق يصون الثقة، والرفق يحسن الصلة بالناس، وأحاديث الصلاة تصل العبادة بالبيان النبوي. ومع كل معنى يتسع الفهم حين يرى القارئ النص كاملاً، ويعرف ما يشرحه، ويصل بين المسألة وأشباهاها مما قرأ.

للتعلم بدايات متعددة وعلوم متصلة

تقدم القراءات الخمس للمبتدئ أمثلة قريبة من حياته، بينما تفتح دروس الإسناد والمصطلح وكتب الأئمة أفقًا أوسع لطالب العلم. الفارق بين البداية والتخصص ليس في قيمة السنة عند قارئ دون آخر، بل في مقدار ما يدرسه من الأسئلة والأدوات. وقد يكون أول ما يشد

القارئ قصة من السيرة، أو معنى أخلاقياً، أو سؤالاً عن ثبوت رواية، ثم تتصل به بقية الأبواب.

يحفظ فهرس الكتاب هذا الاتصال: أجوبة الحجية وعلاقة السنة بالقرآن والتدوين والنقد موزعة حيث يسبقها شرح موضوعها، وتجمع بقية الاعتراضات في الفصل السابع عشر. أما كتب الحديث وأئمتها فلها أربعة فصول، ودروس المبتدئ في الفصل الثامن عشر، مع تطبيق قراءة الحديث الكامل في الفصل العاشر. وتبقى المراجع مع كل فصل لمن يريد التوسع في النصوص التي بُني عليها شرحه.